جامعة الأزهـــر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية

الأدب العربي وتاريخه

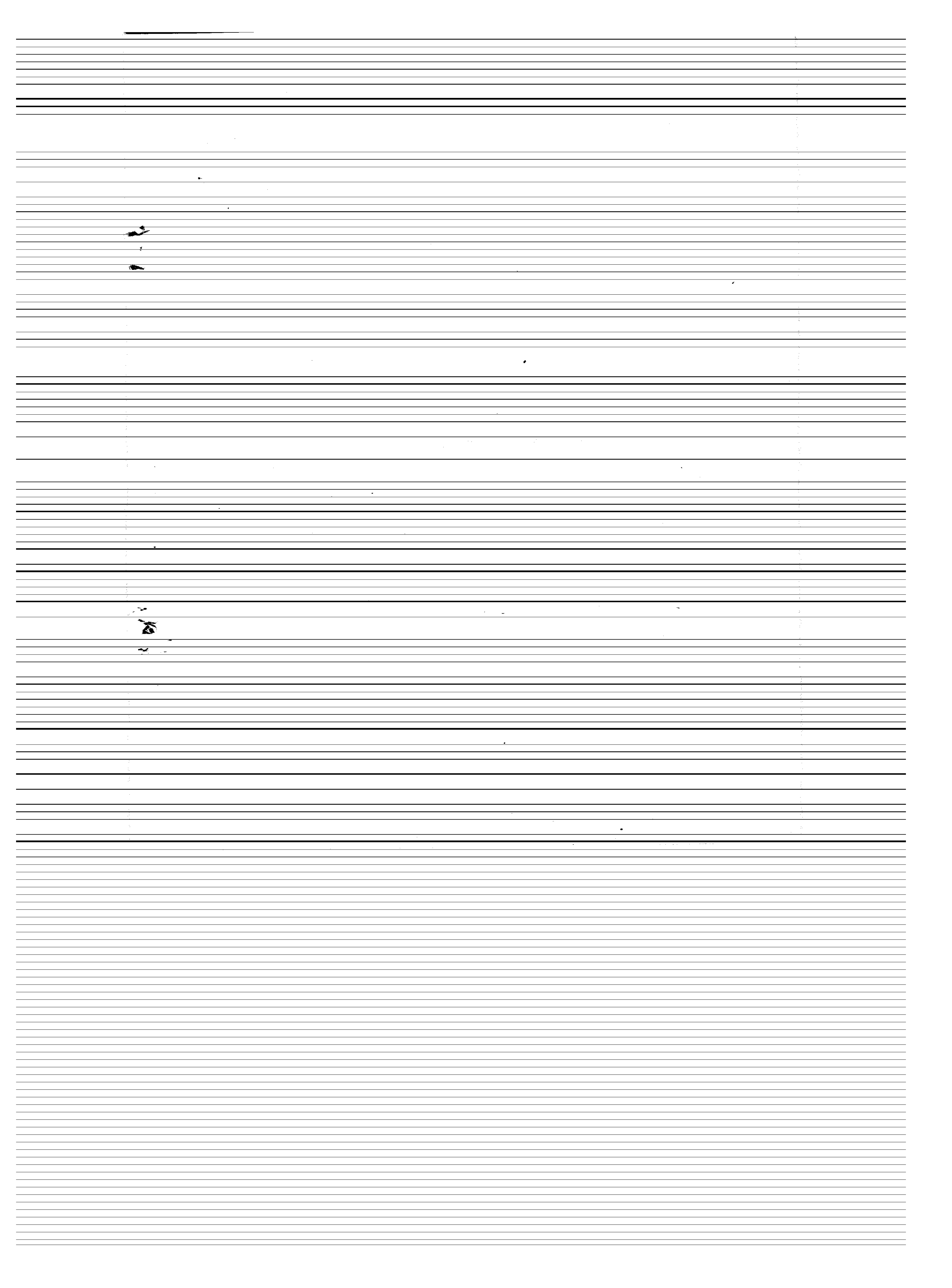
في

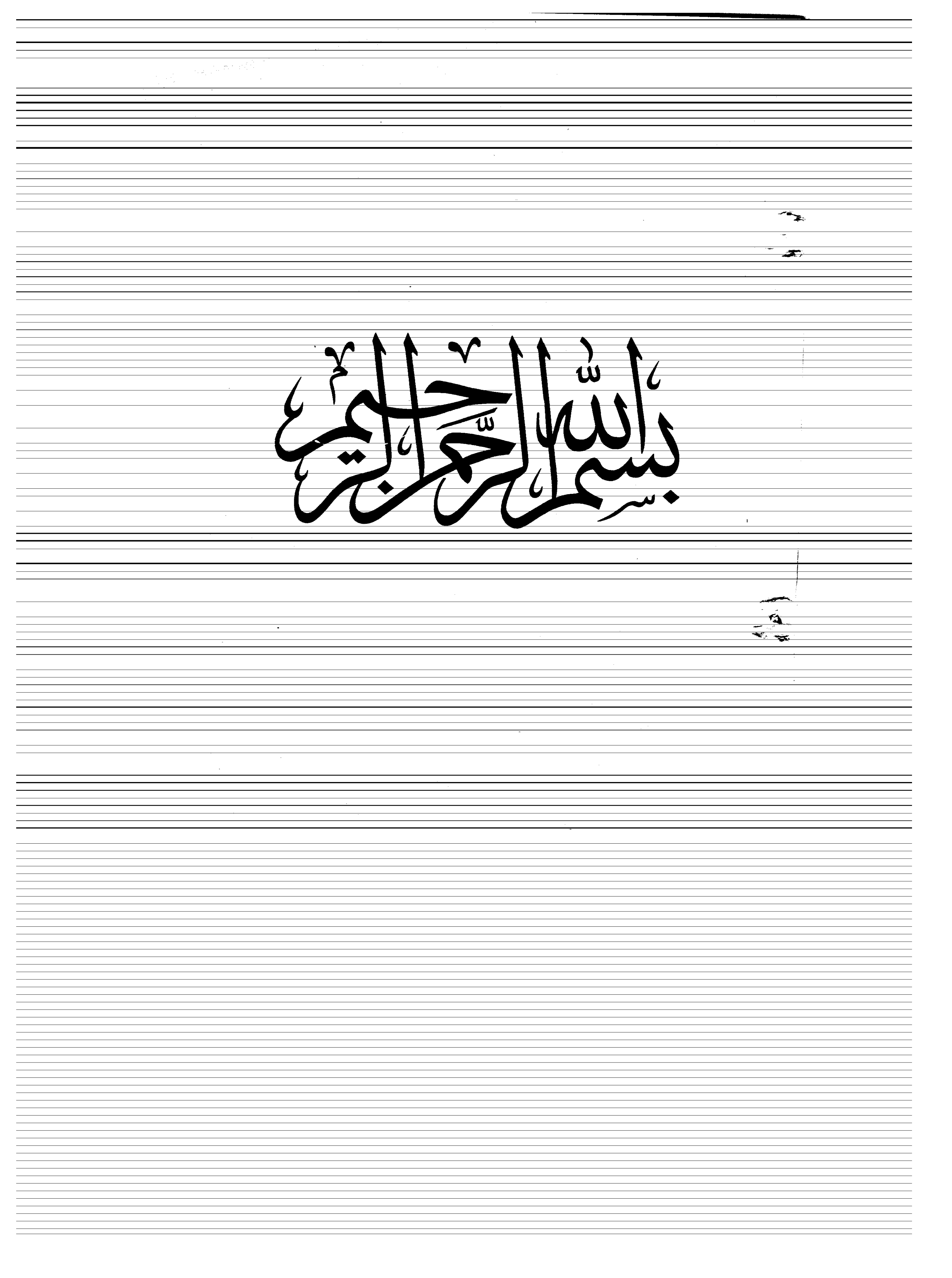
العصر الجاهلي

أستاذ دكتور
صلاح عبد التـــواب
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأزهر

دكتور
محمـــود رزق حـــامـــد
مدرس الأدب والنقد بجامعة الأزهر

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢٧هـ ـــ ٢٠٠٦م




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله معلم الأمي ، والصلاة والسلام علي من جمع له البيان الأبي ، أفصح العرب لساناً، وأبلغهم بياناً ، وعلي آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ...

فهذه الصفحات التالية من هذا الكتاب عن الأدب في العصر الجاهلي إنما هي غيض من فيض ، لأن العصر الجاهلي علي سعته لا يستطيع أحد أن يختصره في عدة صفحات بين دفتي كتاب ، كما لا يستطيع أحد أن يقول إن كلامه في هذا العصر هو الصورة الأخيرة التي وصل إليها الأدب ، وإنما لا بد أن يبذل كل منا جهده في إيضاح جانب معين من جوانب ذلك العصر حتى يهتدي القارئ في النهاية إلي ما كان يرجوه من اكتمال الصورة في ذهنه ، ويصل إلي حقائق ربما غابت عنه .

وإن القارئ لهذا الكتاب سيجد فيه كثيراً من الخير — إن شاء الله — ما دام رائده الاستفادة ، وغايته التحصيل ، وحظه المعرفة ، ودأبه العلم ، فقد راعيت فيه الإطناب غير الممل ، والإيجاز غير المخل بما يتناسب مع تحقيق المأمول منه .

ونـــسأله سبحانه وتعاليَ إنْ يجعله من حسناتنا عنده ، وصنيعنا لديه " يـــوم تجـــد كل نفس ما عملت من خير محضرا " إنه سبحانه قبلة دعائنا ، وأمل رجائنا ، لا يخيب سائله ، ولا ينقطع نائله ، وهو نعم المولي ونعم النصير

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

د/ محمود رزق حامد

منية قلين في ٢٠٠٦/٩/٢٤م

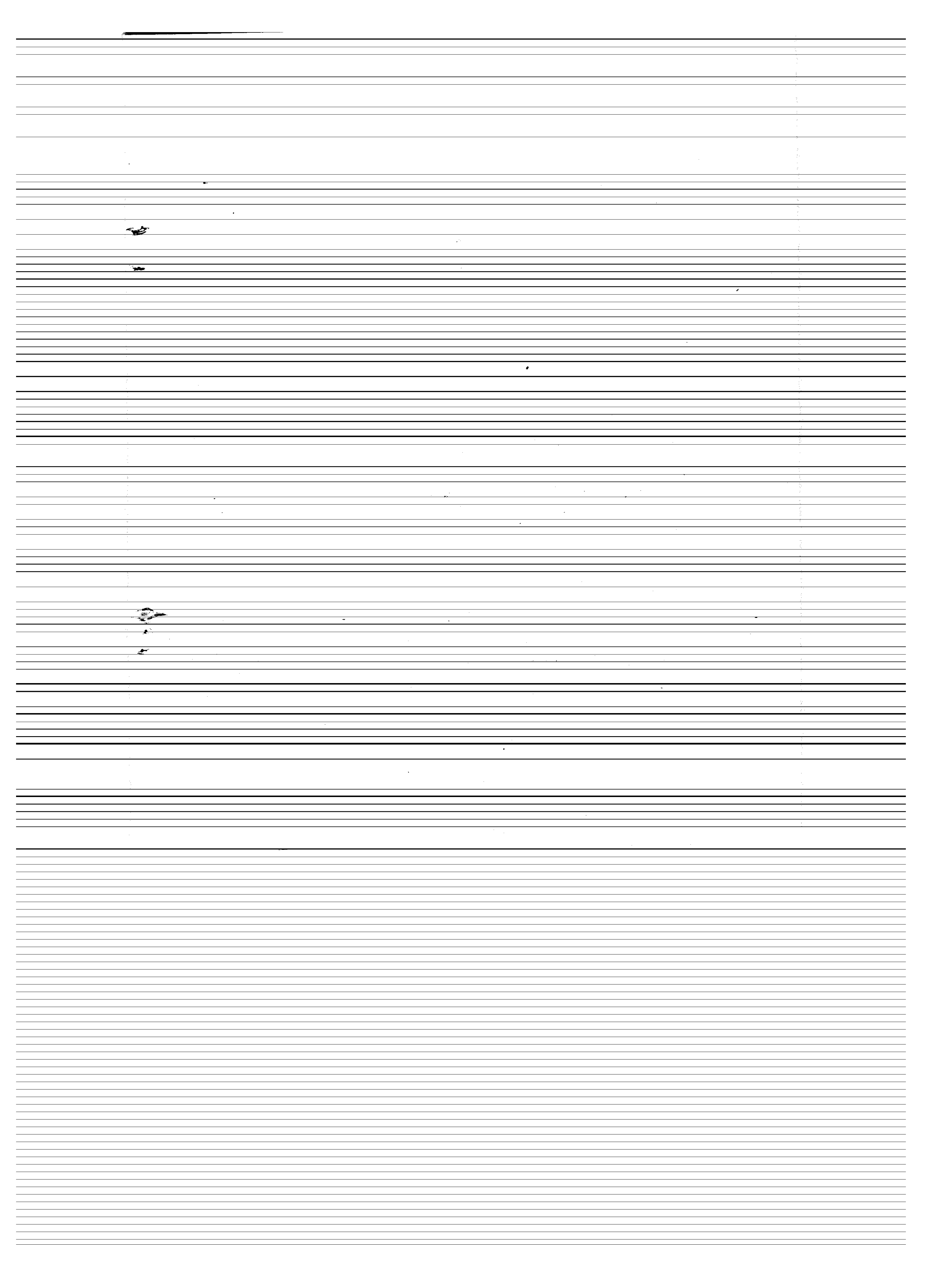
غـــرة رمضان ١٤٢٧هـ

الباب الأول

في العصر الجاهلي

الفصل الأول

الأمة العربية ـ موطنها ـ جنسها ـ لغتها ـ منزلة اللغة العربية بين اللغات السامية ـ سيادة لغة قريش وأسباب ذلك .



الباب الأول : العصر الجاهلي

الفصل الأول (الأمة العربية – موطنها – جنسها – لغتها)

– الأدب العربي يعتبر أقدم الآداب العالمية ، وإن لم يصلنا منه إلا أدب المائة والخمسين عاماً قبيل بعثة النبي " صلي الله عليه وسلم " وتطلق علي هذه الفترة تسمية " العصر الجاهلي "

ولا تحسبن أن هذه التسمية مشتقة من " الجهل " بل من الجهالة والطيش ، إذ قد نبع العرب في علوم ومعارف متنوعة تنفي عنهم الجهل ، غاية الأمر أنهم قوم سريعو الغضب يميلون إلي العراك والنزال ، تثور الفتن بينهم فتؤدي إلي حروب قد تدوم أعواماً ولقد عبروا عما يجيش بصدورهم في قصائد بالغة الجودة وكان يضرب بأدبهم الأمثال .

جزيرة العرب [1]

تشغل جزيرة العرب الجزء الجنوبي الغربي من قارة أسيا ، تبلغ مساحتها ربع أوربا تقريبا ، وثلاثة أمثال القطر المصري أي ما يوازي ثلاثة ملايين كيلو متر مربع ، سماها الأقدمون " جزيرة " تجاوزاً مع أن الماء يحيط بها من ثلاث جهات ، ولا تسمي الأرض جزيرة إلا إذا أحاط بها الماء من أربع جهات . فالصحيح فيها " شبه جزيرة " إلا أن الأقدمين تساهلوا فسموها جزيرة .

---

[1] يراجع في ذلك تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي " د/ شوقي ضيف ط دار المعارف

يـــتألف غربـــي هذا الإقليم من جزأين شهيرين : الحجاز شمالاً ، واليمن جنوباً .

– أمـــا الحجـــاز فقطـــر فقير قلت مياهه ، وأجدبت أرضه ، واشتدت حرارته يعتمد أهله علي الأودية القليلة ، والآبار الشحيحة ، لم يستطيعوا أن ينتفعوا كثيراً بالماء الذي ينزل من السماء ، لأنهم لم يـــبلغوا من الفنون مبلغاً يمكنهم من اختزانه واستخدامه عند الحاجة اليه ، وأشهر مدنه : مكة ، والمدينة ، والطائف .

– وأمـــا اليمن فقد اشتهر قديما بالغني والخصب والحضارة ، كثرت أمطاره وسيوله وعرف أهله بما أوتوا من فن أن ينتفعوا بها ، فأنـــشأوا السدود يسيطرون بها علي الماء جمعاً وتصريفاً ، وأشهر مدنه صنعاء ، ونجران ، وعدن .

– وهذان القطران أعني الحجاز واليمن ؛ أبعد البلاد أثراً في حياة العرب وفي تاريخهم السياسي والاقتصادي والأدبي .

– وإذا وقع نظرك علي خريطة تصور جزيرة العرب فأوضح ما تري فيها وأبعده ؛ ما فيها من صحاري في داخلها ، وهي متنوعة فـــي صـــبغتها ، فهـــي ســـهلة لينة حيناً ، وهي صلبة انتثرت فيها الحـــصباء حيناً آخر ، ومفروشة بحجارة سوداء تسمي الحرار حيناً ثالثاً وهذه الصحاري في جملتها قفر ، تسطع الشمس عليها في الحر فـــتلفح أرضها وأهلها ، ويعتمد أهلها وساكنوها علي ما تنبته بعض

الـــبقاع عقب المطر فترعاه إبلهم وشياههم وهم يأكلون من لحومها ، ويشربون من ألبانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها .

" نسب سكانها "

اعـــتاد النـــسابون أن يقسموا الشعوب إلي أجناس ويسموا كل جـــنس باســـم خاص يجمعها ، واعتادوا أن يسموا الجنس الذي منه العرب " الجنس السامي " نسبة إلي " سام بن نوح عليه السلام " .

– والـــساميون كلمـــة تطلـــق علي مجموعة من الشعوب في الـــشرق الأوسط دلت القرابة بين لغاتها علي أنها كانت في الأصل تـــتكلم بلهجـــات مـــتقاربة تطـــورت إلي لغات سميت جميعاً باسم (الـــسامية) أخذا من اسم سام بن نوح الذي ورد ذكره في التوراة ، وهـــي تـــسمية اصطلاحية ، فليس هناك أمة تسمي الأمة السامية ، وإنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل علي أنها ترجع إلي أصل لغوي واحد .

– وتـــساءل العلماء عن المهد الأصلي لأسلاف الناطقين بهذه اللغـــات السامية كالآكدية والأوجريتية والكنعانية والآرامية والعربية الفصحي ، وتعددت إجاباتهم في هذا الصدد .

– فـــنمهم مـــن قال إن السامين استوطنوا بلاد الحبشة وأنهم نـــشأوا مع إخوانهم الحاميين ثم هاجروا عن طريق باب المندب أو شبه جزيرة سيناء .

– ويري آخرون أنهم نشأوا في أواسط آسيا أو في أرمينية .

– ويري بعض المؤرخين أنهم نشأوا في شمالي سوريا .

– كما يري بعضهم أنهم نشأوا فيما بين النهرين .

– ويـرجح المؤرخـون [١] أن موطنهم الأساسي هو شبه الجزيرة العـربية ولمـا كثروا أو ضاقت بهم رقعة الأرض تشعبوا وتفرقوا فنـزحت جماعات منهم علي فترات إلي الشمال والشرق في سوريا والعراق واستقروا هناك .

– ومن قديم وهؤلاء العرب ينقسمون إلي عرب الشمال " الحجازيين" وعـرب الجـنوب " اليمانيـين " ويذكر النسابون أن عرب الشمال يرجعون في نسبهم إلي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وعرب الجنوب من نسل قحطان ، ويسمون اليمانيين أو القحطانيين ، وبين هذين النوعين من العرب فروق ترجع في جملتها إلي أن عرب الحجـاز تغلـب عليهم عيشة البداوة ، وعرب اليمن يعشون عيشة حضارة .

– ولسنا نقصد أن عرب الشمال كانوا يسكنون الحجاز فحسب وعرب الجنوب كانوا يسكنون اليمن فحسب ولا يتعدونها ، بل نعني أن كـلاً من الحجازيين واليمانيين عنصر يختلف في نسبه ودمه عن العنـصر الآخـر ، أو علـي الأقـل في زعمهم ، ولكن كانت بين

---

[١] انظر تاريخ مصر والعالم القديم / جمال مختار مطبعة عاطف سنة ١٩٧٦ .

العنصرين صلات ، ورحل قوم من كل فريق إلي موطن الآخر لأسباب يطول ذكرها ، فكان في الحجاز عرب من اليمن ، وكان في اليمن عرب من الحجاز .

وكل من اليمانيين والحجازيين ينقسمون إلي قبائل :

- فاليمانيون يتفرعون إلي فرعين كبيرين : شعب كهلان ، وشعب حمير ، فشعب كهلان أشهر قبائله طيئ ، وهمدان ، ولخم وكندة .

وشعب حمير أشهر قبائله قضاعة ، وتنوخ ، وكلب .

- والحجازيون كذلك ينقسمون إلي قسمين كبيرين : ربيعة ، ومضر فربيعة أشهر قبائله : بكر ، وتغلب

وشعب مضر أشهر قبائله : قيس ، وتميم ، وهذيل ، وكنانة وقريش وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلي بطون يطول عدها ، وكان بين هذه القبائل من الحروب والمنازعات والتهاجي ما ملئت بين كتب التاريخ .

اللغة العربية

✍ منزلتها بين اللغات – اللهجات العربية – سيادة لغة قريش

اللغة العربية : هـــي إحدي اللغات السامية ، وقد عرفت علي النحو الذي نعلمه حوالي آخر القرن الخامس للميلاد . ويذهب الباحثون في علـــم المقارنة بين اللغات إلي أن اللغة العربية من أقرب اللغات إلي اللغة الأصلية التي تفرعت منها اللغات السامية .

– وذلك نظراً لاحتباس العرب في بلادهم وقلة النازحين منها والوافدين إليها ، وضعفَ العلاقة بين أهلها وغيرهم من الأمم .

– وهي من أغني اللغات كلماً وأدقها تصويراً وأوسعها مذهباً ، حيث وسعت جميع أغراض البشر ولم تضق ذرعاً بجميع العلوم والفنون ، بل تقبلت كل ثمرات القرائح ، وأكبر دليل علي عظمتها نزول كلام الله بها " القرآن الكريم " .

– نشأت اللغة العربية في أقدم موطن للأمم السامية (الحجاز ونجـــد وما إليها) وعلي الرغم من ذلك فإن الآثار التي وصلت إلينا منها تعد من أحدث الآثار السامية فالذي وصل إلينا من آثار الآكادية أو البابلية – الآشورية يرجع تاريخه إلي القرن العشرين قبل الميلاد – والذي وصل إلينا من آثار العبرية يرجع تاريخه إلي القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، والذي وصل إلينا من آثار الفينيقية يرجع تاريخه

إلي القرن العاشر قبل الميلاد ، وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يتجاوز القرن الأول قبل الميلاد ، وأقدم ما وصل إلينا من أثار العربية الباقية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد ، فالزمن بعيد وعميق ، ولهذا فإننا لا نعلم شيئا عن طفولة اللغة العربية ، وما مرت به من أطوارها في عصورها الأولي .

- وفي ضوء ما وصل إلينا من آثارها يمكن القول بأنها تنقسم إلي قسمين :-

١) العربية البائدة **٢) العربية الباقية**

فالعربية البائدة :

وتسمي عربية النقوش وتطلق علي لهجات كانت تتكلم بها عشائر عربية تقيم في شمال الحجاز علي مقربة من حدود الآراميين ، ولتطرف هذه اللهجات في الشمال ، وشدة احتكاكها باللغات الآرامية وبعدها عن المراكز العربية الأصيلة في نجد والحجاز فقدت كثيراً من مقوماتها وصبغت بالصبغة الآرامية وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسلام ولم يصل إلينا منها إلا بعض نقوش عثر عليها في مساحة واسعة في " دمشق " .

ومن هذه النقوش

١) النقوش اللحيانية ٢) النقوش الثمودية

٣) النقوش الصفوية ٤) نقش النمارة

٥) نقش زبد ٦) نقش حوران

(٢) العربية الباقية

وهي التي تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها ، والتي لا تزال تستخدم عندنا وعند الشعوب العربية الأخري .

وقد نشأت هذه اللغة ببلاد نجد والحجاز ثم انتشرت في كثير من المـــناطق التي كانت تشغلها من قبل لغات سامية وحامية وانشعبت منها اللهجات التي يتكلم بها الآن في البلاد العربية .

وأقـــدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يعرف بالأدب الجاهلي . ويرجع تاريخ أقدمها إلي القرن الخامس بعد الميلاد علي أبعد تقدير ، وهـــي تمثل هذه اللغة في عنفوان اكتمالها وعظمتها بعد أن اجتازت مـــراحل كثيـــرة مـــن التطور والارتقاء ، وبعد أن تغلبت لهجة من لهجاتهـــا وهـــي لهجـــة قريش علي أخواتها بعد صراع طويل معها وصار العرب يؤمونها في شعرهم وخطابتهم ونثرهم الأدبي .

✍ العربية الفصحى وسيادة لغة قريش

طفـــولة اللغة العربية – كما مر – ضاربة في مجاهل التاريخ بحيث لم يصلنا من أخبارها شئ والذي وصلنا منها هو نتاج مرحلة متقدمة مـــن النضج والاستواء والسعة والازدهار ، ومعلوم أن قبائل العرب ومـــنازلهم قـــد اتسعت وانقسمت تبعاً للبيئة الجغرافية لشبهة جزيرة العرب .

ومن المقرر في قوانين اللغات أنه متى انتشرت اللغة في مساحة واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا بل لا تلبث أن تتشعب إلى عدة لغات .

ولم تفلت اللغة العربية من هذا القانون العام فقد انقسمت منذ أقدم عـصورها إلي لهجات كثيرة يختلف بعضها عن بعض في كثير من مظاهـر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات ، واختصت كل قبيلة وكل جماعة بلهجة من هذه اللهجات .

✍ واليك بعض من ما شهر من اللهجات :

١) عجعجـة قضاعة : وهي قلب الياء المشددة جيماً مطلقا فيقولون علج في على ، وعشج في عشى ومن ذلك قول شاعرهم :

خالي عويف وأبوعلج المطعمان اللحم بالعشج

٢) كشكـشة تمـيم وأسد وربيعة : وهي أن يلحقوا بكاف المخاطبة شيئا في الوقف ، فيقولون : رأيتكش أي رايتك ، وعليكش أي عليك.

٣) فحفحة هذيل : وكانوا يقلبون الحاء عينا فيقولون : عتى في حتى ، وعين في حين .

٤) الطمطمانـية : وهي لحمير وأهل اليمن وبعض طئ وهي إبدال لام التعريف ميماً .

فـــيقولون امـــسهم فـــي السهم وامبر في البر وامصيام في الصيام .
ونقول نحن في عاميتنا امبارح بدلاً من البارحة .
٥) وينـــسب إلي بعض الحميريين أنهم كانوا يجعلون السين تاء في بعض الكلمات فيقولون النات بدل الناس
ويستشهد اللغويون علي ذلك بقول علباء بن أرقم

يا قبح الله بني السعلات   عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا أعفاء ولا أكيات [١]

أي شرار الناس – ولا أكياس ..... الخ
وهـــناك لهجات كثيرة نسبت إلي بعض القبائل ، ولهجات أخري لم تنـــسب إلـــي قبائلها ، يقول الدكتور شوقي ضيف : (ولا نريد أن نمضي في تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل في الجاهلية أكثر من ذلك ، لسبب طبيعي وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها في صحف معدودة إنما أردناً أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت في الجاهلـــية لهجات كثيرة سجل منها اللغويون أطرافا ، ومن غير شك لم يسجلوها جميعا لأنها لم تكن تعنيهم في حد ذاتها ، إنما كان يعنيهم التنبـــيه علي ما يخالف الفصحي التي نظم بها الشعر الجاهلي ونزل بهـــا القرآن الكريم ، ومن أجل ذلك لم ينصوا في أكثر الأحوال علي القبيلة التي كانت تنطق باللهجة الشاذة [٢].

---

[١] انظر في ذلك كتاب المزهر للسيوطي في مواضع متفرقة ، وكتاب الصاحبي في فقه اللغة لأحمد بن فارس

[٢] العصر الجاهلي صـــ ١٣٠ ط السادسة عشرة – دار المعارف

سيادة لهجة قريش

أتـــيح للهجات العرب المتعددة فرص كثيرة للاحتكاك بفضل الـــتجارة ، وتبادل المنافع ومجاورة القبائل بعضها لبعض وتنقلها في طلب الكلأ وتجمعها في الحج والأسواق والحروب الأهلية وغير ذلك فاشـــتبكت مـــن جـــراء ذلك اللهجات العربية بعضها مع بعض في صراع لغوي كتب فيه النصر للهجة قريش .

يقـــول الدكـــتور ضيف : (يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلي دلالة قاطعـــة علـــي أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها علي لهجـــة أدبـــية فصحي ، كان الشعراء علي اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجـــة قبيلته المحلية إلي هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلا جداً) [١]

يقول أبو نصر الفارابي : (كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها علي اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس) [٢]

---

[١] السابق صـــ ١٣١ .

[٢] المزهر للسيوطي جــ ١ صـــ ٢١١ .

ويقــول أحمــد بــن فارس نقلاً عن إسماعيل بن عبيد الله : (أجمع علماؤنــا بكــلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جــل ثــناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً " صلي الله عليه وسلم " فجعل قريشاً قطان [1] حرمه وجيــران بيــته الحــرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيــرهم يفــدون إلــي مكــة للحج ، ويتحاكمون إلي قريش في أمورهم ..... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتــتهم الوفــود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغــاتهم وأصــفي كلامهــم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلي نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا تــري أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ولا كشكشة أسد) [2]

أسباب سيادة لهجة قريش

يقــول د/ ضــيف : (ونحن إذا طلبنا سبباً لتفوق لغة قبيلة في نجد علي جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك .... بينما

---

[1] قطان بالضم / أي سكان .

[2] انظر الصاحبي في فقه اللغة صـــ ٢٣ . ط المؤيد . والعجرفية : التقعر وطلب الغريب الوحشي من الكلام .

إذا طلبـــنا ذلك في قريش وجدنا أسباباً كثيرة تعين عليه ، فقد كانت مهـــوي أفـــئدة العرب في الجاهلية وكان بها عليهم نفوذ واسع بسب مركـــزها الدينـــي الروحـــي والاقتصادي المادي ، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية ، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة .

– ومعنـــي ذلـــك أن هناك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات القبلية في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية فأن القبائل العربية كانت تري تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفـــرس والـــروم والحـــبش علي أطرافها ، كما كانت تري هجوم الديانتـــين المـــسيحية واليهودية علي دينها الوثني ، فتجمعت قلوبها حـــول مكة ، وهوت أفئدتها إليها وبذلك تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة) .

يتـــضح ممـــا ســـبق أن هناك عوامل كثيرة ساعدت علي تغلب هذه اللهجة نجملها فيما يلي

١) العامل الديني :–

فقـــد كانـــت قريش مجاورة لبيت الله الحرام يقيمون حوله ويقومون بـــسدانته ، وكـــان لهذا البيت قداسته عند معظم القبائل العربية في الجاهلـــية ، يحجـــون إلـــيه ليؤدوا مناسكهم ، ويزوروا أصنامهم ،

ويقدمـــوا لهـــا القـــرابين ، ويشهدوا منافع لهم ، فكان لقريش بذلك السلطان الديني علي بقية القبائل العربية .

٢) العامل الاقتصادي :-

كـــان لقريش سلطان اقتصادي خطير ، فقد كانت معظم التجارة في أيـــدي القرشيين الذين كانوا ينتقلون بتجارتهم في مختلف بقاع شبه الجزيرة العربية من الشام شمالاً إلي أقصي اليمن جنوباً ، فكانت لهم رحـــلات تجارية منظمة في مختلف فصول السنة من أشهرها رحلة الـــشتاء إلـــي اليمن ورحلة الصيف إلي الشام كما حدث بذلك القرآن الكـــريم إذ يقول : " لإيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" (١)

٣) العامل السياسي :-

فقـــد تحقق لقريش بفضل نفوذها الديني والاقتصادي ، وبفضل موقع بلادها ، وما كانت تمتاز به من حضارة ونعيم نفوذ سياسي قوي في ســـائر بـــلاد العرب في العصر الجاهلي ، وفي ذلك يقول أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – في رده علي الأنصار الذين رغبوا في الخلافة بعد وفاة الرسول – صلي الله عليه وسلم – " لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش ، فلا تنفسوا علي إخوانكم ما منحهم الله من فضله "

---

(١) سورة قريش / الآيات ١-٤

وربما يفهم من قول أبي بكر – رضي الله عنه – أن ذلك كان بسبب الإسلام ، لأنه قال قوله هذا بعد وفاة النبي – صلي الله عليه وسم – ويــرد هــذا أن أبا طالب عم النبي عليه الصلاة والسلام – قال في خطبته عند زواج النبي من السيدة خديجة رضي الله عنها : " الحمد لله الــذي جعلــنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام علي الناس ....) [1]

٤) العامل اللغوي

كانــت لهجــة قــريش أوسع اللهجات ثروة وأغزرها مادة ، وأرقها أسلوبا ، وأقربها إلي الكمال ، وأقدرها علي التعبير في مختلف فنون القول لذا قال الفراء : كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البــيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات العرب ، فما استحسنوه مــن لغــاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ .

– وقــد مــر بنا قبل ذلك قول ثعلب من أنها ارتقت عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة .... الخ

وكذلك قول أبي نصر الفارابي من أن قريشاً كانت من أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها علي اللسان عند النطق ..... الخ

---

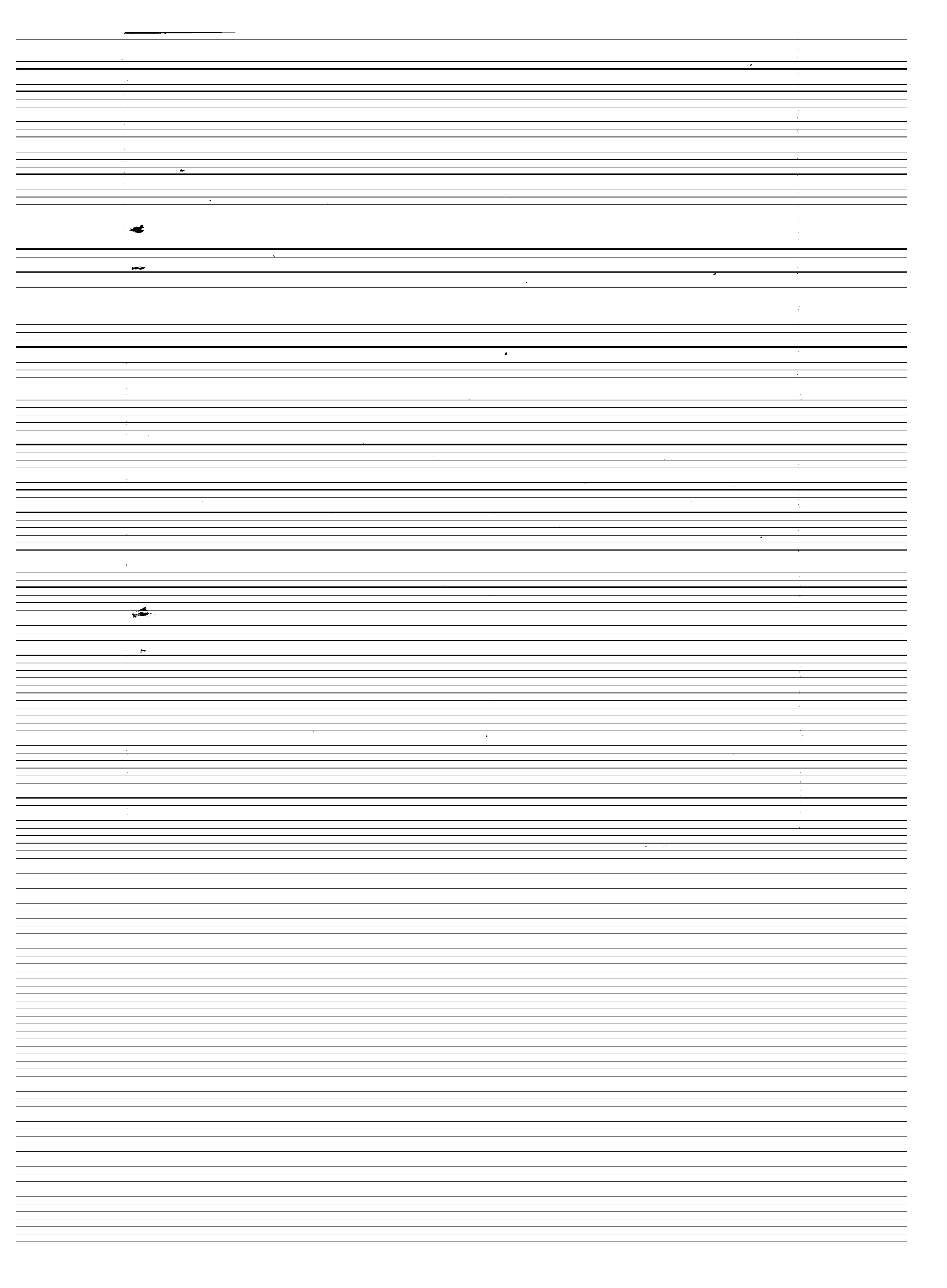
[1] الوسيط في الأدب العربي / أحمد الأسكندري – مصطفي العناني ط ٧ صـــ ٢٩ مطبعة المعارف .

– إذن جميع الظروف التي تقتضيها قوانين التغلب اللغوي كانت مهيأة لتغلب لهجة قريش علي اللهجات العربية الأخري ، فليست ظاهرة تغلبها فذة في التاريخ أو يرجع سببها إلي إرهاص أو إعجاز بل هي ظاهرة عامة في لغات البشر قديمها وحديثها .

– لهذه الأسباب مجتمعة أصبحت لغة قريش هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم وكان الشعراء يتخذونها لغة شعرهم ، وكذلك كان الخطباء يرتجلون بها خطبهم متسامين بها علي لهجاتهم القبلية ، ومما يدعم ذلك ما قاله الرواة من أن العرب (كانت تعرض أشعارها علي قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردوداً ....)

الفصل الثاني

الأسواق العربية وأثرها في الحياة الأدبية



الأسواق العربية وأثرها في الحياة الأدبية

كـــان العرب في الجاهلية يقيمون أسواقاً ، وهذه الأسواق كانت تقام فـــي أشـــهر السنة للتجارة والتسوق ينتقلون من بعضها إلي بعض ، (فـــتدعوهم طبـــيعة الاجتماع إلي المقارضة بالقول والمفاوضة في الرأي والمبادهة بالشعر ، والمباهاة بالفصاحة ، والمفاخرة بالمحامد وشـــرف الأصـــل ، فكان للعرب من ذلك معونة علي توحيد اللسان والعـــادة والـــدين والخلق ، إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخي الألفـــاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلي إفهام سامعيه ، وطمعاً فـــي تكثيـــر مشايعيه ، والرواة من ورائه يطيرون شعره في القبائل وينشرونه في الأنحاء ، فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته) [١]

وأشهر هذه الأسواق هي عكاظ، ومجنة وذو المجاز .

أولاً: عكـــاظ

عكـــاظ اســـم قـــرية تقع بين نخلة والطائف ، بينها وبين مكة ثلاث مـــراحل اتخذت سوقا سنة ٥٤٠ للميلاد ثم بقيت في الإسلام إلي أن نهبها الخوارج سنة ١٢٩هـــ بعدما ضعف شأنها .

وكانـــت هذه القرية يقام فيها السوق في أول ذي القعدة من كل عام إلـــي العشرين منه وكان يجتمع بها كثير من سادة العرب للمتاجرة ومفـــاداة الأسري ، والتحكيم في الخصومات ، والمفاخرة والمنافرة

---

[١] تاريخ الأدب العربي / أحمد حسن الزيات صـــ ١٥ ط نهضة مصر .

بالـشعر والخطب في الحسب والنسب والكرم ، وغيرها مما يتفاخر بها في عظيم المصائب والأرزاء .

يقـول الـزيات عن الأسواق مبيناً أثرها في الحياة الأدبية وخاصة عكـاظ : (وأشهر هذه الأسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز وأولاهن أشـهر فضلاً وأقوي أثراً في تهذيب العربية ، كانت تقوم هلال ذي القعـدة وتـستمر إلي العشرين منه فتفد إليها زعماء العرب وأمراء القول للمتاجرة والمفاخرة ومفاداة الأسري ، وأداء الحج ، وكان كل شـريف إنمـا يحضر سُوق ناحيته ، إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج ، لأنها متوجههم إلي الحج ، ولأنها تقام في الأشهر الحـرم ، وذلك ولا ريب سر قوتها ، وسبب شهرتها وكان مرجعهم فـي الفـضل بيـنهم إلي محكمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكمون لمن وضح بيانه وفصح لسانه) [1]

وكان من أشهر المحكمين النابغة الذبياني ، ومن أشهر خطبائها قس ابن ساعدة الإيادي .

وثابـت فـي تاريخ الأدب أن النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة حمراء من أدم في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فكان من الوافدين عليه وهو يقضي بين الشعراء في عكاظ : حسان بن ثابت والخنساء والأعشي .

---

[1] السابق صـ ١٦

فأنشده حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحي

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محــرق

فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما [١]

وأنشدته الخنساء :

قذي بعينك أم بالعيــــن عـــوار

أم أقفرت مذ خلت من أهلها الدار

وأنشده الأعشي :

ما بكاء الكبــير بالأطــلال وسؤالي وما تــرد سؤالـــي

فحكـــم النابغة بينهم جميعا فقال للخنساء : لولا أن أبا بصير – يعني الأعشي – سبقك ، لقلت إنك أشعر من بالسوق .

– وقـــال لحسان : إنك لشاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك – أي استعمل جمع القلة بدلاً من جمع الكثرة – وأضعفت فخرك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، أي افتخر بالفرع دون الأصل وهم الأباء والأجداد .

فقام حسان وقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

---

[١] بني العنقاء وابني محرق / قبيلتان من الأزد

فإنك كالليل الذي هو مدركي

وإن خلت أن المنتأي عنك واسع .

فخنس حسان لقوله .

وهـذه الـرواية تؤكد أن أسواق العرب كانت ميادين فسيحة لإنشاد الـشعر والتنافس في الإجادة والإتقان وأن الشعراء كانوا آخر الأمر يـنقادون لحكم أصحاب الرأي والبصيرة من النقاد فقد رجع حسان عن مبالغته عندما أنشده النابغة شعره .

- وفـي أخـبار الأعشيَ في " الأغاني " أيضا رواية تؤكد أنه كان يوافـي كل عام سوق عكاظ ، وكان المحلق الكلابي مملقا " فقيراً " فقالت له امرأته : ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر .... فتعرض له ونحر له ناقته وسقاه ، وخرج الأعشي من عنده ، فلما وافي سوق عكاظ اجتمع الناس حوله وهو ينشدهم

لعمري لقد لاحت عيون كثيـرة

إلي ضوء نار باليفاع تحـرق

فمـا أن انتهـي من إنشاده حتي سلم عليه المحلق الكلابي ، فنادي الأعشي في المجلس منوهاً به ومعرفاً ، فما قام المحلق من مقعده إلا وقد زوج بناته جميعاً .[١]

---

[١] انظر الأغاني جـ ١١ صـ ٣٧٩٢ .

ومـن اهـتمام العـرب بالـشعر في سوق عكاظ أنهم كانوا يعلقون القـصائد الـسبع المجـودة المحبرة افتخاراً بفصاحتها علي كل من يحضر الموسم من الشعراء القادمين من شتي القبائل ، وكانوا يفعلون ذلـك إما لتحدي الشعراء أن يقولوا مثل هذه القصائد علي اعتبار أن هـذه القـصائد هي القمة عندهم في الفصاحة والجزالة ، وإما لحث الـشعراء علـي الإحـسان فـي قـولهم وشعرهم مثلما أحسن أهل وأصحاب القصائد السبع .

– وهـناك العديـد من أسماء الشعراء اللامعين الذين كانوا يرتادون هذه السوق من أمثال النابغة الجعدي ، والنابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت ، والأعشي ، والخنساء ، والأغلب العاجلي ، والمستوعر .

<u>ثانيا : مجنـة</u>

ومجـنة موضـع أسفل مكة علي بعد أميال منها . وكانت العرب ينـتقلون إليها من عكاظ بعد انتهائها ويظلون بها " مجنة " إلي نهاية ذي القعـدة ، أي يظلون عشرين يوماً في عكاظ وعشراً في مجنة . ومجـنة من الأسواق العربية العديدة التي عرفها العرب قديماُ إلا أن الشهرة والفضل يظلان لعكاظ .

ثالثاً : ذو المجاز

– وهـــو موضـــع بــــ " منـــي " خلف جبل عرفات وكانت العرب يـــرتادونها فيقيمون فيها ثمانية أيام من شهر ذي الحجة ، ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع .

– وهكذا كانت الأسواق ذات أثر اجتماعي أيضا ولكنه يتصل بمنزلة الشعر في نفوس العرب،إذ كانوا يقبلون علي استماعه وتلبية داعيه .

– وكان من أثر الأسواق أيضا تهذيب اللغة العربية ، إذ كانت قريش تأخذ من لهجات العرب ما خف علي اللسان وحسن في السمع حتي لطفـــت لهجـــتهم ، وجاد أسلوبهم واتسعت لغتهم لأن ينزل بها خير الكلام وهو القرآن الكريم .

أيضا كانت الأسواق حلبة فسيحة للشعراء يعرضون أشعارهم ، مما كان له عظيم الأثر في شحذ هممهم ، وخلق روح المنافسة بينهم .

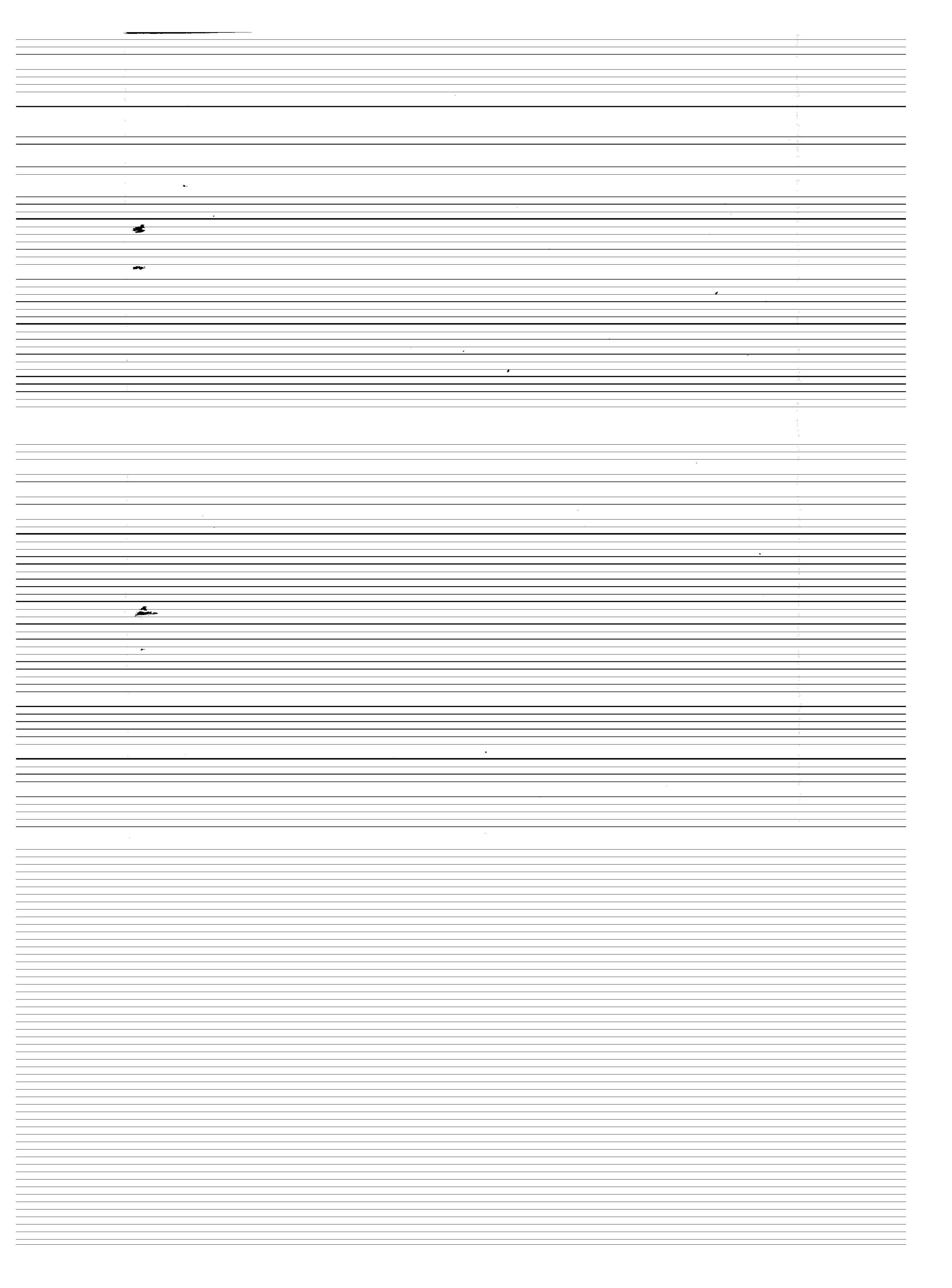
الفصل الثالث

الأدب، مفهومه، عناصره

العوامل المؤثرة فيه

تقسيمه إلي إنشائي ووصفي

ثم إلي نثر وشعر



الأدب مفهومه ، وعناصره والعوامل المؤثرة فيه

إن عنايتـــنا بـــالأدب ترجع أولاً وقبل كل شئ إلي أهميته الإنسانية العمـــيقة الباقـــية ، فـــالأدب سجل حي لما رآه الناس في الحياة وما خبـــروه مـــنها ، وما فكروا فيه وأحسوا به إزاء مظاهرها التي لها عـــندنا جميعاً أهمية مباشرة ، ولذلك كان الملوك والأمراء والوزراء يتخذون لأبنائهم الصفوة المختارة من أهل العلم والمعرفة فينقطعون لهـــم في تهذيبهم وصقل عقولهم بأقوال السابقين ليكون لهم من هذا الرصـــيد ثـــروة ينفقون منها ، ومعين يستعينون به إذا ما أعوزتهم الحاجة إلي التعبير .

والأدب هـــو ذلـــك الفن الرفيع الذي يصدر جماله عن طبع الكاتب والـــشاعر فـــي الكلمـــة يرسلها والقصيدة ينظمها فتقع علي مواطن الحـــسن مـــن الـــنفس فتثيرها حماسة ونجدة ، وتذيبها حنانا ورقة ، وتهزها أريحية وكرما .

المدلول اللغوي لكلمة (أدب)

لقد مرت هذه الكلمة بأطوار مختلفة حتي وصلت إلي ما يراد منها اليوم أمـــا عـــن مدلولها اللغوي فقد جاء في لسان العرب لابن منظور [١] (الأدب الـــذي يـــتأدب به الأديب من الناس ، سمي أدبا لأنه يأدب " يدعو " الناس إلي المحامد وينهاهم عن المقابـــح ، وأصـــل الأدب

---

[١] لسان العرب صـــ ٤٣ ط دار المعارف

الدعاء ، ومنه قيل للصنيع يدعي إليه الناس مدعاة ، ومأدبة ....

الأدب : أدب النفس والدرس ، والأدب الظرف وحسن التناول ،

وأدب بضم الدال فهو أديب من قوم أدباء ..... والأدب بسكون الدال

مصدر قولك أدب القوم يأدبهم بالكسر أدباً إذا دعاهم إلي طعامه

وفي الحديث (إن هذا القرآن مأدبة الله في أرضه فتعلموا من مأدبته)

إلي غير ذلك من المعاني التي تدور حولها الكلمة .

وقلما نجد باحثاً في الأدب الجاهلي أو كاتبا فيه إلا عني بكلمة

" الأدب " ومعانيها المختلفة في العصور العربية المختلفة .

– وإذا رجعنا إلي العصر الجاهلي ننقب عن الكلمة فيه لم نجدها

تجري علي ألسنة الشعراء ، إنما نجد كلمة آدب بمعني : الداعي إلي

الطعام ، فقد جاء في قول طرفة بن العبد :–

نحن في المشتاة ندعو الجفلي لا تري الآدب فينا ينتقر [١]

ومن ذلك المأدبة بمعني الطعام الذي يدعي إليه الناس ، واشتقوا من

هذا المعني أدب يأدب بمعني صنع مأدبة أودعا إليها .

إذن كلمة أدب في العصر الجاهلي معناها الدعوة إلي الطعام أو

الدعوة عموماً والأدبة والمأدبة بالفتح ، والمأدبة بالضم : كل طعام

صنع لدعوة أو عرس ، قال صخر الغي يصف عقاباً :

---

[١] المشتاة : الشتاء والدعوة الجفلي : العامة والآدب : الداعي

ينتقر : يختار أناساً دون آخرين .

كأن قلوب الطير في قعــر عشهـــا

نوي القسب ملقي عند بعض المآدب[١]

كما وردت الكلمة " أدب " في معني الدعوة إلي الحق " كما في قول أبي ذؤيب الهذلي :

وكيف قتالي معشراً يأدبونكم علي الحق إلا تأشبلوه بباطل

ولـــيس وراء هذه الأبيات ، أبيات أخري تدل علي أن الكلمة انتقلت في العصر الجاهلي من هذا المعني الحسي إلي معني أخر .

أمـا فـي صـدر الإســلام

فقد استعملت كلمة أدب في معني تهذيب النفس وترويضها لاكتساب المحاســـن والمحامد المعنوية ومن ذلك ما أثر عن النبي (صلي الله عليه وسلم) أنه قال : (أدبني ربي فأحسن تأديبي)

ومـــن دلالتها علي حسن الخلق ما قاله سهم بن حنظلة الغنوي وهو شاعر مخضرم إذ يقول :

لا يمنع الناس مني ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حسان ذا أدبا

وربمـــا استعملت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعني الخلقي فها هو ذا الأعشي يفتخر بحسن خلقه وهو بصدد الحديث عن ظلم الكلبي الذي أسره فيقول :

جروا علي أدب مني بلا نزق إلا إذا شمرت حزب بأغمار

---

[١] القسب : تمر يابس صلب النوي

- **وفي العصر الأموي** : نــري الكلمــة قــد توزعت في دلالتها بين استعمالين هما :-

١- تهذيب النفس وحملها علي اكتساب المحامد والمحاسن والأخلاق الكريمة ومن ذلك ما جاء في الحماسة من قول الشاعر : -

أكنيه حيــن أناديــه لأكرمــه ولا ألقبــه والســوأة اللقبــا

كذاك أدبت حتي صارمن خلقي إني وجدت ملاك الشيمة الأدبا

٢- اســتعمالها في التعليم ، فقد أصبحت الكلمة تطلق علي كل ألوان المعــرفة مــن شعر ونثر وخطب وتاريخ وقصص ورواية وحديث وفقه .... الخ .

يقول الدكتور شوقي ضيف : (ولا نمضي في عصر بني أمية حتي نجد الكلمة تدور في المعني الخلقي التهذيبي وتضيف إليه معني ثانيا جديــداً وهــو معنــي تعليمي فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمي " بالمؤدبــين " كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأناسبهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام ، وأتاح هذا الاستخدام الجديــد لكلمــة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذي كان يطلق حينــئذ علــي الــشريعة الإســلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم) [1]

---

[1] تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي " صــ ٨

– وعـــرف حينـــئذ أن المعلـــم مؤدب والمتعلم متأدب ، وما يتلقاه المـــتأدب من المؤدب أدب . وفي نهاية هذا العصر انفصلت العلوم العربية عن العلوم الشرعية وأصبح الأدب يطلق علي الشعر والنثر وما يتصل به من ألوان المعرفة ما عدا العلوم الشرعية ، وهكذا بدأ المفهـــوم يـــتجه نحو التحديد والانفصال من غيره مما لا يدخل فيه دخولاً مباشراً .

– أمـــا في العصر العباسي فقد أخذت الدائرة تضيق أكثر فقد خرج عـــن مفهـــوم الكلمـــة " الأدب " النحو والصرف وعلوم اللغة التي اقتـــضتها الضرورة حرصاً علي الشعر والنثر وما يتصل بهما من شـــرح ورواية وتفسير وأخبار ونقد وحكم وأمثال وبلاغة وما يلزم ذلـــك مـــن النحو والصرف بقدر ضئيل ، ومن الكتب التي ظهرت تحمل هذا الطابع آنذاك " طبقات الشعراء " لمحمد بن سلام الجمحي " والبـــيان والتبيـــين " للجـــاحظ ، و" الشعر والشعراء " لابن قتيبة " والكامل " للمبرد .

– وفـــي نهاية القرن الثالث الهجري أخذت معاني الكلمة الاتجاهات الآتية :

١– المعني الخاص : وهو الشعر والنثر وما يتصل بهما من الأخبار والأنساب والأيام والأحكام النقدية .

٢- المعنـــي العـــام الـــذي يشمل المعارف الإنسانية والآثار العلمية وأنواع الفنون التي تعمل علي اتساع الثقافة عند المرء .

٣- تلـــك العلوم الأدبية التي استقلت وصارت غير الأدب الخالص ، وأن كانت لازمة للأديب ليستكمل بها ثقافته ويستعين بها علي إنشاء الأدب وفهمه ونقده كالأنساب والأخبار واللغة والفلسفة التي نقلت عن الثقافات الأخري كاليونانية والفارسية والهندية .

٤- أدب الـــنفس : وهـــو كل أسلوب مستحسن في علم أو عمل من خلق فاضل وسيرة محمودة .

- وفـــي أواســـط هـــذا العصر وبعد أن اتسعت آفاق الشعر والنثر وتطورت أساليبهما نجد الأدب قد قطع شوطاً ملحوظاً من التخصص فأصبح له معني خاص يدل علي : النتاج الجيد من الشعر والنثر وما يتـــصل بـــذلك من الرواية والتراجم للأدباء والوقوف علي أخبارهم وحـــياتهم والمؤثـــرات المهمـــة فيها ، وتبعا لذلك وما جد من أمور نـــشطت حـــركة الـــنقد واتسعت حتي أثمرت مجموعة من الكتب : كالـــصناعتين لأبي هلال العسكري ، والموازنة للآمدي ، والوساطة للقاضي الجرجاني .

ولما كثرت المعارف الإنسانية من طب وفلك ورياضة وفنون وبيان وفـــصاحة ...... الـــخ . ولمـــا كـــان الإلمام بها مهما أطلق بعض الباحثين علي الأدب آنئذ أنه : الأخذ أو الإلمام من كل فن بطرف .

ولعل الحاجة هي التي دعت إلي ذلك .

فنظـــراً للفـــتح والاخـــتلاط وترجمة علوم الثقافات الوافدة وكان من أسباب التحضر والتقدم معرفة ذلك فاتسع مفهوم الأدب العام ليجاري ركـــب الحـــضارة ولعـــل الأقرب إلي الواقع أن الأدب شعره ونثره للتثقيف الواسع .

– وظل مدلول الكلمة بعد ذلك يضيق ويتحدد حتي أخذت الكلمة في أواخر القرن الخامس مدلولها الذي هو أقرب إلي مدلولها في عصرنا الحالي وهو : فن الكلام الجميل شعراً ونثراً والذي يصور به الأديب الطبـــيعة والحـــياة وما يعن له من أمور يصورها من خلال أخيلته وإحـــساسه بهـــا تـــصويرا يحقق في نفوس القراء والسامعين المتعة واللذة الفنيتين .

ويـــري المستشرق الإيطالي " كارلو نالينو " أن كلمة " أدب " مقلوبة عن " دأب " ويقول أن العرب جمعت دأبا علي آداب كما جمعوا بئراً علي آبار ورأيا علي آراء ثم عادوا فتوهموا أن آدابا جمع أدب ، ثم دارت في لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعني السنة والسيرة .

وهـــذا رأي افتراضـــي وضعيف ومن أسباب ضعفه أنه لم يرد في المعـــاجم اللغـــوية أو في أي نص جمع كلمة الدأب علي آداب ولكن ورد في كتب اللغة جمع بئر علي آبار وأبآر . كما أن كلمة الدأب لم تـــرد بمعني الأدب لأن الدأب هو العادة والشأن والاستمرار بالحسن أو بالسوء بينما الأدب خلق كريم

تـــاريـــخ الأدب:

هو علم يبحث عن أحوال اللغة وآدابها نثرها ونظمها في عصورها المختلفة وكذلك ما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ القول نظماً ونثراً من حيث رفعتها وضعتها وما عرض لها من أسباب الصعود والهبوط .

– ويعنـــي كذلك بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللسن وما لهم من أثر بين في الأدب والمؤثرات التي جعلتهم ينتحون الأدب بهذه الصفة مـــن القوة أو الضعف وهو يقف على الأسباب العامة لارتقاء الأدب والعكـــس ، كما يقف بكَ علي أساليب اللغة وفنونها ويكشف لك فكر أهلها وأحوال نابغيها وما لهم من آثار محمودة ينبغي أن يحتذي بها كل من أراد أن يكون مثلهم .

– وهـــو الـــذي يتعـــرض للظواهر الأدبية المختلفة في عصر من العـــصور أو في بيئة من البيئات أو طور من الأطوار أو فيها كلها بالبيان والتحليل من حيث الرفعة والنهضة والضعف والانحطاط .

– وأما تعريفه بمعناه العام (فهو وصف مسلسل مع الزمن لما دون فـــي الكـــتب وســـجل في الصحف ، ونقش في الأحجار تعبيراً عن عاطفـــة أو فكرة ، أو تعليماً لعلم أو فن ، أو تخليداً لحادثة أو واقعة فـــيدخل فـــيه ذكـــر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكانتهم في الفن .

الذي تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعاً أو تأخرها [١]

أذن لـــتاريخ الأدب معنـــي خـــاص وتعريف خاص ، ومعني عام وتعريف عام .

فهو بمعناه الخاص : التأريخ للشعراء والكتاب تأريخاً خاصاً بالأدب وتطوره وظواهره مع مقدمات تاريخية واجتماعية وثقافية عامة مع بحث شخصيات الأدباء ومذاهبهم الفنية بحثاً تاريخياً نقدياً تحليلياً .

أمـــا معـــناه العام فهو التأريخ لأعلام الثقافة والفكر الأدبي في الأمة تاريخاً عاماً .

– ومـــؤرخ الأدب العربـــي إمـــا أن ينهج هذا النهج الواسع فيؤرخ لـــلأدب بمعـــناه العام فيتعرض لكل من أثروا في غيرهم أو تأثروا بغيرهم في شتي المعارف وفي أغلب العصور ، وإما أن ينهج النهج الخـــاص فـــيقف بتاريخه عند الشعراء والكتاب مفصلاً الحديث في شخـــصياتهم الأدبـــية وما أثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية .

وقـــد درج المؤلفون من أدباء العربية علي التأريخ بالمعني الخاص ومـــن الذين برزوا في هذا المجال – ابن خلكان في كتاب " وفيات الأعـــيان " والكتبي في كتابه " فوات الوفيات " والسيوطي في " بغية الـــوعاة " وياقوت الحموي في " معجم الأدباء " والقفطي في " تاريخ

---

(١) تاريخ الأدب العربي / الزيات صـــ ٤

الحكماء " ، وأبو الفرج الأصفهاني في " الأغاني " ، والثعالبي في " يتمـــية الدهر " ، والفتح بن خاقان في " قلائد العقيان " ، والكاتب الأصفهاني في " خريدة القصر " والمقري في " نفح الطبيب " .

– بـــيد أن نـــسبة هذه الكتب إلي تاريخ الأدب ظلم لتاريخ الأدب ؛ لأنها في جملتها أخبار مفردة غير مرتبطة لا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصناعة والغرض والأسلوب .

– وهي كذلك لا تذكر ما حدث للشعر والنثر من تحول وتقلب ، وما نجـــده مـــن ذلك في كتاب " العمدة " لابن رشيق القيرواني ، وكتاب " المـــثل السائر " لابن الأثير ، " والمقدمة " لابن خلدون والفهرست لابـــن النديم ليس إلا نتفاً يسيرة ونبذاً وجيزة وردت مبعثرة لا صلة بينها ولا رابط .

والأدب لا يكتفي منه بالنتف اليسيرة ولا بالنبذ الوجيزة التي لا رابط بيـــنها ولا بالأحكام أو التراجم المجملة وإنما لا بد فيه من التفصيل والتحليل وربط هذا بذاك .

– ولمـــا كان الأدب كائنا حياً يتأثر بالمؤثرات العامة فإن فريقاً آخر ينبري مؤرخاً لهذا الأدب فيتعرض لأحواله من قوة وضعف ويحيط خبراً بالمؤثرات العامة في حياته من بيئة طبيعية واجتماعية وثقافية إلـــي غير ذلك من المؤثرات التي عملت فيه ، كما يدرس عصوره المخـــتلفة ، ومن يقوم بذلك هو المؤرخ الأدبي الذي يحتاج إلي ثقافة

تمتاز بالسعة والإحاطة والشمول وهذا الفريق هم المستشرقون ومن سـار علـي نهجهم من مؤرخي العرب وكان ذلك في بداية العصر الحديث .

– إذن ظـل هذا العلم بمعناه الواسع مجهولاً إلي القرن قبل الماضي حيث جاء المستشرقون فجمعوا أشتات هذه المسائل ونسقوها ورتبوها بعد أن مهدوا لذلك بمقدمات تاريخية كمداخل لفهم هذه المسائل .

– فهذا " كارل بروكلمان " المستشرق الألماني قد أرخ للأدب بمعناه الـشامل فكتابه " تاريخ الأدب العربي " أشبه بدائرة معارف عامة تستقصي الآثار المطبوعة والمخطوطة في مشارق الأرض ومغاربها للفلاسـفة والعلماء العرب من كل صنف وللشعراء والكتاب من كل نوع .

أنـه أرخ للحياة العقلية والشعورية في الأمة تاريخاً عاماً ، وقد نسج علـي منواله : جرجي زيدان في كتابه " تاريخ آداب اللغة العربية " وفؤاد سزكين في كتابه " تاريخ التراث العربي "

ومن هؤلاء المستشرقين ، المستشرق الإيطالي " كارلو نالينو " الذي جمـع في كتابه " تاريخ الآداب العربية " دراسة شعر المشركين في صـدر الإسـلام والغـزل والأراجيز وشعر الفتن السياسية والشعر القصصي والمراثي .

– ومـــن المؤرخين الذين ساروا علي نهج المستشرقين غير جرجي زيدان ، وفؤاد سزكين ، طه حسين ، وحفني ناصف ، والشيخ أحمد الإســكندري ومحمــود مــصطفي ، ومــصطفي صادق الرافعي ، والسباعي بيومي ، والزيات

– وقــد دخــل في دراسة تاريخ الأدب في العصر الحديث دراسات وموضوعات أخري من أهمها :

١) الترجمة من اللغات الغربية ، والبعثات وأثرها في ازدهار الأدب وآثار الترجمة في الأدبُ والفنون .

٢) المستــشرقون وآثارهم واستكشاف أهدافهم من دراساتهم إنصافاً للعــرب وللفكــر الإســلامي والحــضارة العربية أو تجنياً عليهم ، وتصدي العلماء العرب لهؤلاء المستشرقين .

٣) المقالات المختلفة والصحافة ودورها في ازدهار هذا الفن .

٤) القــصة والأقــصوصة والرواية والمسرحية ، ودراسة المذاهب الأوربــية نــشأتها وآثارهــا كالكلاســيكية والرومانتيكية والواقعية والرمزية .... الخ .

العوامل المؤثرة في الأدب:

جـــاء الأدب الجاهلـــي ممثلاً ومصوراً للحياة الجاهلية أصدق تمثيل وأوضح تصوير ومعبراً عن كل جوانب الحياة منها سياسية كانت أو اجتماعـــية أو دينـــية أو عقلية ، وما ذلك إلا لأنه نبع منها فصبغته بصبغتها وطبعته بطابعها .

مـــن أجـــل ذلـــك كان الوقوف علي أهم العوامل المؤثرة في الأدب الجاهلـــي أمـــراً ضرورياً ، لأن دراستها وفهمها يساعد كثيراً علي إدراك الدوافـــع النفـــسية المتبايـــنة ، ويكـــشف الـــدلالات المختلفة والخصائص العامة .

إذن دراسة هذه العوامل أساس هام في الكشف عما في هذا الأدب .

ومن أهم هذه العوامل:

أ) البيئة : البيئة هي التي يلازمها الإنسان في حلة وترحاله ، ويحيا مع صورها وما حوت من ألوان مختلفة فتنعكس علي طبيعة الإنسان بمـــا تحـــويه من حرارة وبرودة وخصب وجدب ، ورقة وغلظة ، وســـكينة وجلـــبة ، فطبيعة تلك البلاد " أعني بلاد العرب "معظمها صـــحراء وأرض شاسعة من الفضاء يندر فيها الكلأ ، لذا يكثر فيها الارتحـــال بـــين الحين والحين انتجاعاً للرزق وبحثا وراء الكلأ في أرض غيـــرها ، ولهـــذا ظهرت الغلظة والوعورة في طباع أكثرهم بسبب ما كان يقابل من مغامرات وغارات فقد كان يمشي طويلاً في

طـــرق طويلة لا يصادف مؤنسا ، فيتصور الجن والغول ، وكل هذا يـــنعكس علـــي فكـــرهم وآدابهم ، وهذه الحياة التي يحياها الجاهلي يستيقظ في الصباح فتقع عينه علي الإبل والآكام والصحراء والسماء والبـــرق والرعد والمطر والليل والنجوم والأماكن التي ارتحل عنها أهلهـــا بعد أن أقاموا بها زمناً ، وربما عششت بعض الذكريات من هـــذه الـــديار فـــي فكر الشاعر ووجدانه فتركت في نفسه أثراً قد لا يمحي .

– وعـــدة العربـــي في الصحراء الجمل والفرس وعليهما يعتمد في حـــربه وسلمه كل هذا له أثره في توجيه الشعر والأدب عموماً نحو وجهة معينة .

– فها هو ذا امرؤ القيس يصف فرسه قائلاً :

مكر مفر مقبل مدبـــر معـــا　　كجلود وصخر حطه السيل من عل

كميت يزل اللبد عن حال متنـــه　　كمـــا زلـــت الصفـــواء بالمتنـــزل

علي الذبل جياش كأن اهتزامه　　إذا جـــاش فيـــه حمية غلي مرجل

– وهـــذا عنترة وزهير وغيرهم يصفون النياق والجياد وما ذلك إلا أثراً من آثار البيئة التي عاشوا بين أحضانها وتعاملوا معها .

– وهـــؤلاء بـــدورهم يخـــتلفون عـــن أولئك الذي يعيشون في بيئة متحـــضرة طيبة الجو رغدة رقيقة ، فإنك لتجد هؤلاء في حالة أكثر هـــدوءاً واتـــزاناً ورقـــة ونعومة ، وهذا بلا ريب يساعد علي توفر

الاعـتدال ، وكـل هذه الآثار تنعكس علي الأدب فتتوفر فيه عذوبة الألفاظ ورقة الخيال وسهولة الأسلوب وبعده عن الخشونة والوعورة والمعاني الوحشية والخيال المحدود .

يقـول صاحب الوساطة : (وكان القوم يختلفون وتتباين أحوالهم ، فيرق أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ آخر ويتوعر منطق غيره وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلقة ، فإن سلامة اللفـظ تتـبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلق ، وأنت تجـد ذلـك ظاهـراً في أهل عصرك وأبناء زمانك وتري الجافي والجلـف منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتي أنك ربما وجـدت ألفاظـه فـي صوته ونغمته وفي جرسه ولهجته ومن شأن الـبداوة أن تحـدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي " صلي الله عليه وسلم " : (من بدا جفا) ولذلك تجد شعر عدي بن زيد وهو جاهلي أسـلم من شعر الفرزدق ، ورجز رؤبة وهما أهلان لملازمة عدي الحاضـرة وإيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب ، وتـري رقـة الـشعر أكثر ما تأترك من قبل العاشق المتيم والغزل المـتهالك فإن اتفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطبع إلي الغزل فقـد جمعـت لـك الرقة من أطرافها ، فلما ضرب الإسلام بجيرانه واتـسعت ممالـك العـرب وكثـرت الحواضر ...... ونشأ التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله) [١]

---

[١] الوساطة / القاضي الجرجاني صـ ٢٣، ٢٤

(ب) الحياة الاجتماعية والسياسية :

كان سكان الجزيرة العربية يعيشون عيشة قبائل ، فالقبيلة هي الوحدة التي يبني عليها نظام حياتهم . والنظام القبلي ينتظم في سلكه الأفراد في البادية ، فهذا النظام أشبه ما يكون بالدولة المستقلة علي صغرها وتحكم نفسها بواسطة رئيسها أو سيدها ، وله الكلمة النافذة والقضاء الفصل ، ينزلون علي رأيه ويخضعون لأمره ، ويستجيبون لندائه ، ولا بد له أن يجمع من الصفات ما يؤهله لهذه المنزلة كالشجاعة والكرم واللسن ، وسداد الرأي وبعد النظر ويحسن أن يجمع إلي ذلك حسن المنظر وضخامة الهامة ، ومتانة البنيان وهذا يدل علي وعي العرب الشديد فهذا يقوم مقام الانتخاب الناجم عن النظرة السليمة ، والرئاسة بهذه الطريقة بعيدة عن الوراثة وفي ذلك يقول الشاعر :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهود في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة أبي الله أن سمحوا بأم ولا أب

ولكنني أحمي حماها واتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب

أما القبيلة : فهي مجموعة من الأفراد ينتسبون إلي أب واحد ، وينتمون لجد واحد هو جدهم الأكبر ، وقل أن ينسب إلي القبلية من لم يساهمها في نسبها إلا عن طريق الحلف أو الولاء .

والقبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات .

١) الأحـــرار " الصرحاء " : وهم أبناء القبيلة الأصليون الذين يربط بيـــنهم الـــدم والنـــسب وهم عمادها وقوامها يتمتعون بكل الميزات وعليهم حمايتها والدفاع عنها .

٢) العبـــيد : وهـــم أسري الحرب الذين عجز أهلهم عن فدائهم ، أو الرقيق المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة .

٣) الموالـــي : وهـــم العبيد الذين اعتقوا ولكن تظل هناك صلة بين المعتق والمعتق تسمي الولاء .

– وتـــسود أفـــراد القبـــيلة جميعاً فكرة العصبية ، فكل فرد يتعصب لقبيلـــته ويعني بحفظ نسبه ويفتخر به ويحنو علي من يشاركه فيه ، ويسير علي منهج قبيلته أصابت أم أخطأت .

والقبـــيلة تحميه من العدوان ، وتطالب بدمه إن جني عليه ، ومرجع الأفـــراد في إقامة العدل بينهم علي حسب عرفهم وتقاليدهم هو سيد القبلية .

– وعلاقـــة القبـــيلة بالقبيلة الأخري ، علاقة عداء – غالباً – تغير علـــيها وتغنم من مالها ورجالها والأخري تتربص بها الدوائر لتنتقم منها ، والقليل منها علاقات حب وسلام وحسن جوار .

– أما عن أخلاقهم وصفاتهم فحدث ولا حرج فقد كانوا بدواً ، ولأهل الـــبدو صفات خاصة يمتدحون بها ويكثرون في شعرهم من ذكرها

والتغني بها ولعل خير ما يمثل هذه الصفات والخصال خصلة الكرم التي بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال فقـد كان الغني يطعم الفقير وكثيراً ما كان الغني يذبح إبله في سنين القحط يطعمها عشيرته ومن سننهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلاً علي أعالي الجبال ليهتدي إليهم التائهون والضالون في الفيافي

– وكانـوا لا يقدرون شيئاً كما يقدرون الوفاء فإذا وعد أحدهم وعداً أوفي به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار الـذي استجار بهم ، وإغاثة الملهوف وحماية الضعيف ، والعفو عند المقـدرة ، ، كمـا كانـوا يمتدحون بالأنفة والعزة والكرامة وقلت الـشكوي من الهم ، وبعد الهمة ، وسعة الأمل ، والمروءة وهو لفظ يجمع قانون الشرف عماده الشجاعة والكرم والوفاء .

– علـي أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلي ، لعل أهمهـا الخمـر واسـتباحة النساء والقمار وتعرض لذلك الكثير من الشعراء في أشعارهم وخاصة الخمر .

يقول طرفة بن العبد :

ومازال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلي أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعيـر المعبـد

وأكبر دليل علي شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم ، وما وضعه الإسلام لها من عقوبات صارمة حتي يكف العرب عنها .

جـ) الحياة الدينية

كان للعرب في الجاهلية دين ضعيف ، لا يخلصون له ولا يصل إلي أعماق نفوسهم ، وانتشرت الوثنية في أكثر قبائل العرب فقد كانوا يعبدون الأوثان والأصنام ويشركون مع الله آلهة أخري ، كما كان بعضهم يعبد النجوم والكواكب وقلما تجد في أشعارهم شرحاً لعاطفة دينية ، وقل أن تري فيه ذكر الله وتمجيده وقل – أيضا – أن تري فيها وصفاً لما كانوا يعبدون .

ويشير القرآن الكريم إلي بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم فيقول عز وجل " أفرأيتم اللات والعزي ومناة الثالثة الأخري " ويقول سبحانه وتعالي" ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً " . ووراء هذه الأصنام التي ذكرها القرآن الكريم أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية في الجاهلية ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلي الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنماً [1] وكان أعظمها عند القرشيين هبل .

---

[1] ذكر ذلك ابن الأثير في فتح مكة جـ٢

كما انتشرت اليهودية والنصرانية في بعض بقاع الجزيرة العربية ، فقد كان فيها مستعمرات يهودية من أشهرها (يثرب) وهي التي سميت بعد (بالمدينة) وكانت اليهودية فيها آمنة مطمئنة ، كذلك انتشرت اليهودية في اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد ، ولكنها كانت في نزاع مستمر مع النصرانية ومن أشهر شعراء اليهودية السموأل بن عادياء .

– وانتشرت النصرانية في مناذرة الحيرة وفي غساسنة الشام وسائر قبائله وزاحمت اليهودية في اليمن ، وكان أشهر مراكز النصرانية في اليمن مدينة " نجران " وكان القسيسون والرهبان يردون أسواق العرب يعظون ويبشرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، واشتهر من شعرائهم وخطبائهم عدي بن زيد ، وقس بن ساعدة الإيادي .

ولكن اليهودية والنصرانية كانتا قليلتين إذا قيستا بالدين السائد في الجزيرة وهو الوثنية .

– كما ظهرت نحل أخري غير الديانات السابقة ومنها : الصابئة ، والمجوسية والحنيفية ، وتلك الأخيرة رأي فيها بعض عقلاء العرب من ذوي النظر الثاقب والفكر المستنير أنها تأخذ بأيديهم من هذه الحيرة وكثرة الأديان والمذاهب والملل وتوصلهم إلي الإقرار بوجود

الله الــواحد مــصرف الكــون ولهذا لم يركنوا إلي شئ من ديانات العرب من هؤلاء ورقة بن نوفل .

– وقــد تــركت هذه الأديان بصماتها في أشعار الجاهلية ففيها نري فكرة البعث والحساب وعلم الله لما في الغيب والنفوس فهذا عبيد بن الأبرص يقول :

من يسأل الناس يحرموه وسائــل الله لا يخيــب

وهذا زهير بن أبي سلمي يقول :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكــم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب ويعجل فينقــم

وهذا قول امرئ القيس (إن صح أنه من شعره)

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها

روي بها من قحول الأرض أيباسا

د) الحياة العقلية " المعارف "

مــن البدهــي أن الحــياة تساعد المرء علي معرفة وتحصيل بعض المعارف ، وهذه المعارف لم تأت جملة ولم يصلوا لأيها دفعة واحدة بــل هــي ضــروب جميعها من المعرفة الأولية تقوم علي التجربة الناقــصة ولا تؤسس علي قاعدة ولا علي نظرية . فهم في غالبيتهم بدو .

كانـــت المـــدن علي التخوم واليمن متحضرة بعض التحضر فالآثار التـــي عثـــر عليها في اليمن والحيرة ، وما نقل عن أهلها يدل دلالة صـــادقة علـــي أنهم كانوا علي حظ من الفن والعلم غير قليل فأهل الحيـــرة تـــسرب إليهم شئ من علوم الفرس وآدابهم وعلوم اليونان وآدابهم ، والغساسنة في الشام تسرب إليهم شئ من حضارة الرومان واليونان وآدابهم ، واليمن أمة عريقة في المدنية كانت تتصل بالفرس وتتصل بالحبشة وتتصل بالرومان ولها معهم جميعاً صلات تجارية أمـــا مـــا عدا هؤلاء من سكان الجزيرة فكان حظهم من العلم والفن قليلاً .

وعلي الإجمال فقط كانت للعرب معرفة بالأنساب والأيام وما ينطري علـــيها مـــن المناقب والمثالب ومعرفة أخبار الأمم ومعرفة النجوم والفلك ومعرفة شئ من الطب كالكي بالنار وبعض العقارات النباتية ومـــا يتـــصل بذلك من معارفهم البيطرية وخاصة فيما يتصل بالإبل والخيل

وكانـــت العـــرب علي علم خاص بالفراسة (وهي الاستدلال بهيئة الإنـــسان وشكله وأقواله علي أخلاقه ومناقبه) والقيافة وهي (تتبع الأثـــر في الأرض والرمل ليتعقبوا من يضل منهم في الصحراء أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم .

وإلي جانب ذلك مما تقدم أضاف العربي ما عرفه من خلال رحلاته من قصص وأخبار سمعها بنفسه أو شاهدها أو حكيت له ومنها أخبار الملوك ، والقصص والأساطير ومما وعته ذاكرتهم ونقله الآباء إلي الأبناء ووعته أذهان الرواة من الحكمة .

وتمتلئ كتب الأمثال والأدب بما دار علي لسان لقمان وأغيره من حكماء الجاهلين من حكم مثل قول أكثم (مقتل الرجل بين فكيه) وفي الشعر الجاهلي كثير من هذه الحكم مثل قول طرفة بن العبد في معلقته :

أري العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد

وممن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودى ولبيد وعبيد بين الأبرص وفي خاتمة معلقة زهير طائفة كبيرة منها مثل قوله :-

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومن هاب أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفي علي الناس تعلم

وقد وقف شعراؤهم كثيراً عند فكرة الموت والحياة والدهر وما يرمي به الناس ، وكانوا يرون أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه ، وكثيراً ما يذكرون من سبقهم إليه متخذين من ذلك العظة

يقول قس بين ساعدة :

فـــي الـــذاهبـــيـــن الأولـــــ	**ين من الشعوب لنا بصائر**
لمـــا رأيـــــت مـــــــوارداً	**للموت ليس لها مصـــادر**
ورأيت قومـــي نحـــوهـــــا	**تسعى الأصاغر والأكابـــر**
لا يرجعـــن قـــومـــــي إلـــ	**ي ولا من الباقين غابـــر**
أيقنـــــت أنـــــي لا محــــا	**لة حيث صار القوم صائر**

وعلـــي هذه الشاكلة كانت لهم ضروب من التفكير في حقائق الحياة والمـــوت ، كمـــا كـــان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعهم ومعاشـــهم وليس في ذلك كله فلسفة ولكن فيه من البساطة والفطرة وما يدل علي حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .[١]

[١] العصر الجاهلي / شوقي ضيف صـــ٨٨

الأدب الإنشائي والوصفي

قسم النقاد الأدب إلي أقسام ، فالأديب عندما يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن شعوره العميق وأحساسه المرهف وتنساب الخواطر والعواطــف التــي تتــنوع في نفس الشاعر أو الأديب وتأخذ أبعاداً متفاوتة وتتداخل الأفكار التي تغذي هذه الشاعرية ، فتتضح الصورة أمام الشاعر أو الأديب عندئذ قد تأتي مرحلة الإفراز اللغوي مباشرة لــتخلص الــشاعر من هذه الشحنة القوية فيعبر الأديب عن شعوره الداخلــي أو خواطــره النفسية وانفعالاته نحو ما يفكر فيه من أمور الحــياة بالــشعر أو النثر فهذا هوالأدب الإنشائي لان الأديب حينئذ ينشئه إنشاء ويكون قد صور ما عبر عنه تصويراً مباشراً من خلال وجدانــه فتخــرج تجــربته ممتــزجة بعاطفته ومشاعره معبرة عن شخصيته فهو يفضي بذات نفسه ويستطيع بما أوتي من قدرة أن ينقل هــذا التأثر إلي غيره ، وعلي قدر تصويره وقدراته الفنية يكون هذا التأثر .

✍ **فالأدب الإنشائي**

هو الأدب الذي يعبر فيه الأديب عن خواطره وأحاسيسه نحو الطبيعة ســواء كانت هذه الأحاسيس وتلك الخواطر مصدرها فيض من نبع داخلــي فــي نفسه أم تتمثل فيما حوله من هذه الطبيعة ، فموضوعه إذن الطبيعة الداخلية والخارجية (في نفس الأديب وخارجه)

وموضـــوعات الأدب الإنشائي : الشعر بما يجمع من فنون كالمدح والوصـــف والهجـــاء ، والنثـــر من قصة ومقالة ومسرحية وخطابة وكتابة بأنواعها .

والأدب الوصفي "النقد الأدبي"

هـــو الذي يتلقي الأدب الإنشائي ويضعه علي شريحة البحث والتأمل ويحاول استخراج أسباب ومواطن الجودة والحسن في النص الأدبي أو مواطن القبح والضعف فيه ، وهو ما اصطلح علي تسميته (بالنقد الأدبي) .

– وموضوع الأدب الوصفي كما هو واضح هو الأدب الإنشائي .

خلاصة القول أن الأدب نوعان :

١) أدب إنشائي وهو التعبير الإنساني الشعري أو النثري عما يجول بالخواطـــر أو يخـــتلج ويخـــالط الجوانح نحو الطبيعة الداخلية التي يحسها الإنسان من الميول والأهواء أو الطبيعة الخارجية التي يراها في السماء والنجوم والبحار والجبال .... الخ

– وينقسم الأدب الإنشائي إلي قسمين

أ) أدب ذاتـــي وهو الذي يعبر فيه الأديب عن ذات نفسه وخواطره ومشاعره وآرائه وتأملاته وإحساساته ومن ذلك الشعر الغنائي .

ب) أدب موضـــوعي : وهو الذي يستعير فيه الأديب ألسنة الآخرين يـــتحدث عـــنهم بهـــا ويعبر عما يجول بخواطرهم ومن ذلك الأدب التمثيلي والقصصي .

٢) وأدب وصفي: وهو ما يتناول الأدب الإنشائي بالوصف والتحليل والحكـــم علـــيه بالرضا والقبول أو بالسخط والرفض ، وهذا الحكم بالرضـــا أو بالـــسخط لا يـــصور طبيعة لا داخلية ولا خارجية ولا يصور تأثر الأديب بها ، بل أنه يتعرض لوصف ما قيل في تصوير الطبيعة ، وهو ما يسمي " نقداً "

– ومن الملحوظ أن الأدب الوصفي وجد بعد الأدب الإنشائي ، لأنه مبنـــي علـــيه وقـــائم به ، وهذا النوع من الأدب " الوصفي " يرتقي بارتقـــاء العقـــل الإنساني ، واستكشاف واستبطان الأمور والتعرف علي داخائلها .

– وينقسم الأدب الإنشائي إلي قسمين : شعر ونثر

فالـــشعر : هـــو الكـــلام الموزون المقفي المعبر عن الأخيلة البديعة والصور المؤثرة البليغة .

والنثـــر : هـــو الكـــلام الخالي من الوزن والقافية المعبر غالباً عن الحقائق ، وصدق التعبير .

وهو نوعان : **مسجع** : إن التزم في كل فقرتين أو أكثر قافية [١]

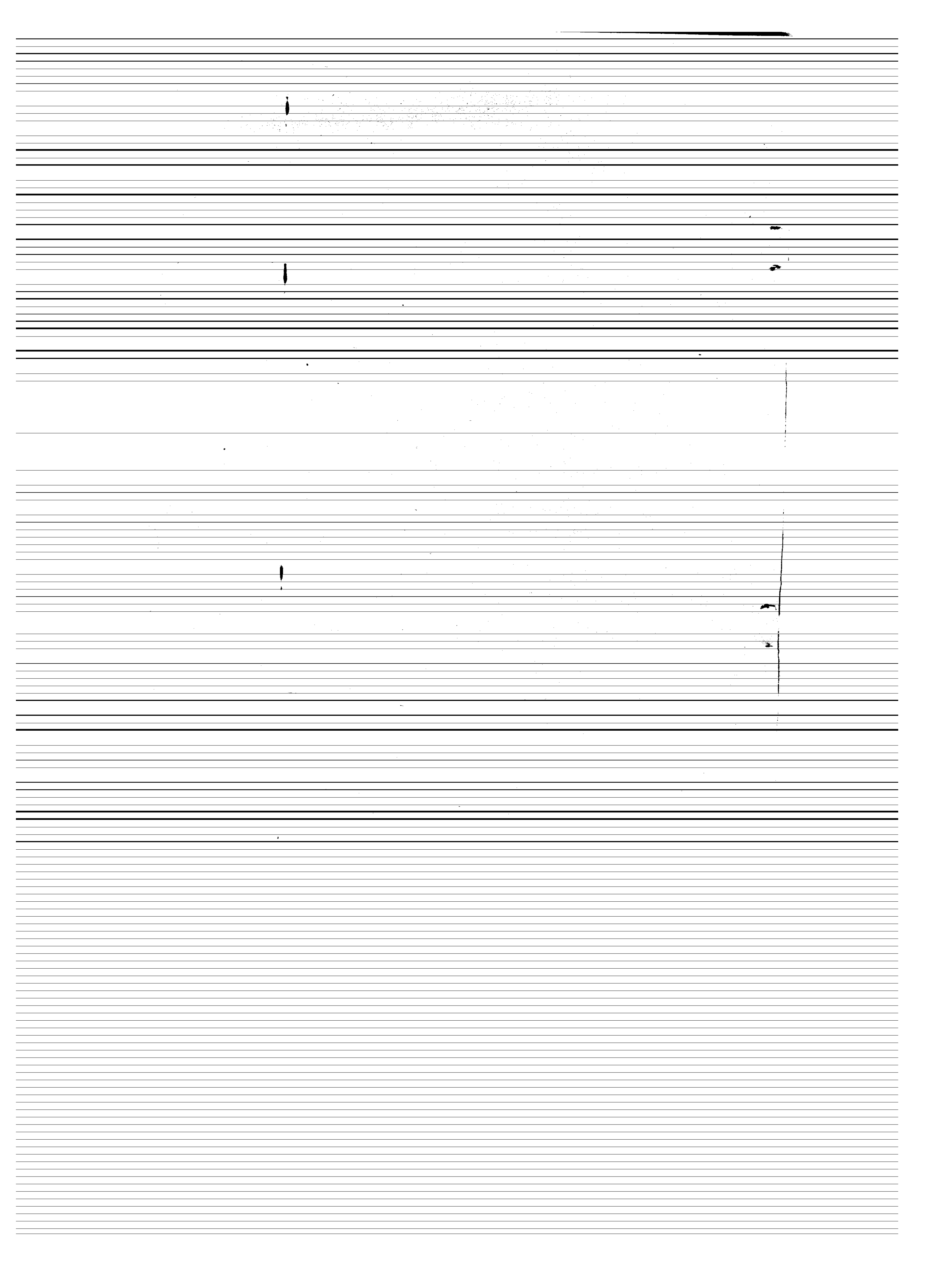
ومرسل : أن كان غير ذلك .

---

[١] تاريخ الأدب العربي / الزيات صـــ ١٨

الفصل الرابع

نظرية سبق الشعر للنثر عند بعض المحدثين
وأدلتها ، ورأينا فيها .



❁ تقديم بين الشعر والنثر :-

فيما سبق تعرضنا لتعريف الشعر والنثر باقتضاب ، وسوف نفسح المجال هنا لشيئ من التفصيل ثم نعرج علي نظرية أسبقية الشعر للنثر ومن قال بها وأدلته ، والرأي في ذلك .

– كلمة الأدب تشمل فنيه : الشعر والنثر ، وإذا كانت الفنون الجملية تصور الطبيعة وجمالها بوسائل مختلفة ، فإن الشعر هو تصوير للتجارب الشعرية بالألفاظ والمعاني .

وقد عرف العروضيون الشعر بأنه : الكلام الموزون المقفي ، وهذا لا يستقيم تعريفاً للشعر لأن هذا التعريف يدخل في دائرته النظم البارد بلا عاطفة ولا خيال وكذلك العلوم المنظومة كألفية ابن مالك وغيرها مما هو بعيد عن دائرة الشعر الذي هو في حقيقته : التعبير الجميل عن الحياة والنفس .

– ***أو هو كما عرفه البعض*** : ما أشعرك وجعلك تحس بجوانب النفس البشرية .

– أو هو كما عرفه البعض التعبير الجميل الذي يصور الطبيعة والحياة معتمداً علي العاطفة والخيال أكثر من اعتماده علي الفعل والفكر .

– وقد جاء في الأدب الجاهلي لطه لحسين [1] أن الشعر : هو الكلام الذي يعتمد فيه صاحبه علي الخيال ويقصد فيه إلي الجمال الفني

---

[1] الأدب الجاهلي / طه حسين صـ ٣٠٩ الطبعة العاشرة

الـــذي يخلب الألباب ويستهوي القلوب ، أو هو الكلام المنظوم الذي يعتمد فيه صاحبه علي الخيال ويقصد فيه إلي الجمال الفني .

– أمـــا النثـــر الفني الذي يدخل في دائرة الأدب فهو الكلام الجميل المتحـــرر مـــن الـــوزن والقافية المعتمد على الفكر والعقل أكثر من اعـــتماده علـــى العاطفة والخيال حتى إن هذين العنصرين " العاطفة والخـــيال " إذا غلبا على النثر فإن بعض الأدباء المحدثين يروق لهم أن يسموا هذا النثر بالشعر المنثور .

❁ أي الفنين أسبق الوجود ؟ الشعر أم النثر ؟

يـــرى بعض النقاد المحدثين من أمثال الأساتذة : أحمد أمين ، وطه حسين ، وعبد الوهاب عزام ، وحامد مصطفى ، أن الشعر أسبق إلى الوجود من النثر ،وحجتهم في ذلك

١) أن الشعر أقدم الآثار الأدبية عند جميع الأمم والشعوب.

٢) وفرة الشعر الجاهلي في الأدب العربي إذا قيس بالنثر الجاهلي .

٣) أن الـــشعر وحـــي الـــنفس ولغة القلب وترجمان العاطفة ومرآة الوجدان ، وهذه الأشياء وجدت مع عهود الإنسانية الأولى ؛ أما النثر فلغة العقل ، والفكر الناضج والتطور الحضاري ، وهذه الأمور تأتي تالية لعهود النشأة الأولى .

٤) أن الشعر تعبير عن حاجات ضرورية وغريزية فيه كحاجته إلى إظهار الفرح أو الحزن في المناسبات المختلفة وحاجته إلى الترويح أو التخفـــيف عـــن النفس بعد تحملها المتاعب طوال اليوم ، فالحياة

وقتـــئذ كانت شاقة ، ومن شأن الشعر والغناء تحقيق ذلك كما يقول بعضهم[١] .

– أما النثر فقد تأخر عن ذلك مراحل لأنه يعبر عن حاجات الإنسان المتحـــضر الذي حاز جانباً من الثقافة وقدراً من التعليم بعد الاهتداء إلي الكتابة والتسجيل لشئون الحياة المهمة .

– ويري بعض العلماء والأدباء أن النثر أسبق إلي الوجود من الشعر ومـــن أصحاب هذا الرأي " أبوبكر الباقلاني " صاحب كتاب أعجاز القـــرآن ، وابـــن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة في محاسن الـــشعر وآدابــــه ونقده ، وحجتهم في ذلك ، أن الشعر مقيد بأوزان وقواف والنثر مطلق والعقل يقضي بأسبقية المطلق علي المقيد .

<u>ويؤيد هذا الرأي من المحدثين</u>

الـــسباعي بيومـــي ، ومحمـــد هاشم عطية ، وأحمد الإسكندراني ، ومصطفي عناني .

– وإذا كـــان أصـــحاب الرأي الأول يحتجون لقولهم بأن الشعر أقدم الآثار عند جميع الأمم والشعوب وكان معروفاً ذائع الصيت ، فإنني أمـــيل إلي أصحاب الرأي الثاني والذين يقولون بأسبقية النثر للشعر وأخص منهم رأي المرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية والذي جاء فيه : أن ظهـــور الشعر في الأمم القديمة لا ينبغي أن يحمل علي شئ

---

[١] دراسات في عصري الريادة / محمد العربي صـــ١٠٤ .

أكثـــر من أنه هو الذي وعته الصدور وتوارثته الأعقاب وظفر من عناية الحفاظ وتناقل الرواة بما لا يظفر بشئ من مثله النثر ، فضاع علـــي كثـــرته ولم يبق منه إلا القليل يوشك أن يكون شيئاً لا يذكر بجانب ما حفظ من الشعر [١]

– كما توافرت للشعر عوامل ساعدته علي إحلاله محل النثر ووفرت لـــه الذيـــوع ، وساعدته علي البقاء ، فالشعر الجاهلي في كثير من القـــبائل لا ينـــبع إلا مجـــرداً عن النفع وقد كانت القبيلة تنكر علي الشاعر أن يقصر شعره علي ذات نفسه ومشاعره الشخصية .

– كمـــا ساعد علي ظهور الشعر وانتشاره أنه كان طريقاً للتكسب ، فالحـــياة الجاهلـــية فقيرة غالباً ، وغنية قليلاً .... هذا إلي جانب الـــصراع والحـــروب التـــي تدور في معظمها حول أسباب العيش الضيقة في بيئة يغلب عليها الجدب والقحط ، وقد وجد الشاعر سبيلاً إلي الحياة في ظل قبيلته أولاً ـــ إذ كان لسانه سيفاً معنوياً إلي جانب الـــسيف المادي في يد المحارب المناضل فإذا ضاقت سبل الحياة أو الحـــصول علي مطلبه من الشرف وغيره تلمس سبيلاً خارج دائرة القبيلة [٢] .

---

[١] الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي صـــ٦١ ط٣ البابي الحلبي .

[٢] انظر ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده / درويش الجندي صـــ١٩

– كما ساعدت كثرة العصبيات في الجاهلية علي حفظ الشعر بسرعة وسهولة لما في طبع الإنسان من إيثار الإيقاع في الأصوات، وترديد نغمة لذت بها أذنه " كما أن العرب قوم أميون لم يرجعوا في تدوين حكمتهم وتخليد مآثرهم إلي رقم في رف ، أو نقر في حجر فأكسبهم ذلك التأني في الكلام وجودة الحفظ ومعاناة الرواية ، ولا تتمثل هذه الأمور في أمثل من الشعر .

– وإذا كان الشعر طريقاً للتعبير عن المشاعر ، فالنثر أيضا طريق لإظهارها ، والتعبير عنها ، وإلا لو سلمنا أن الشعر هو الطريق الأوحد للتعبير عن المشاعر عند الشعراء ، فكيف يعبر غير الشعراء من الكثرة الهائلة من الناس ، وكيف تعبر عن ذلك القبائل التي لم توهب شعراء .

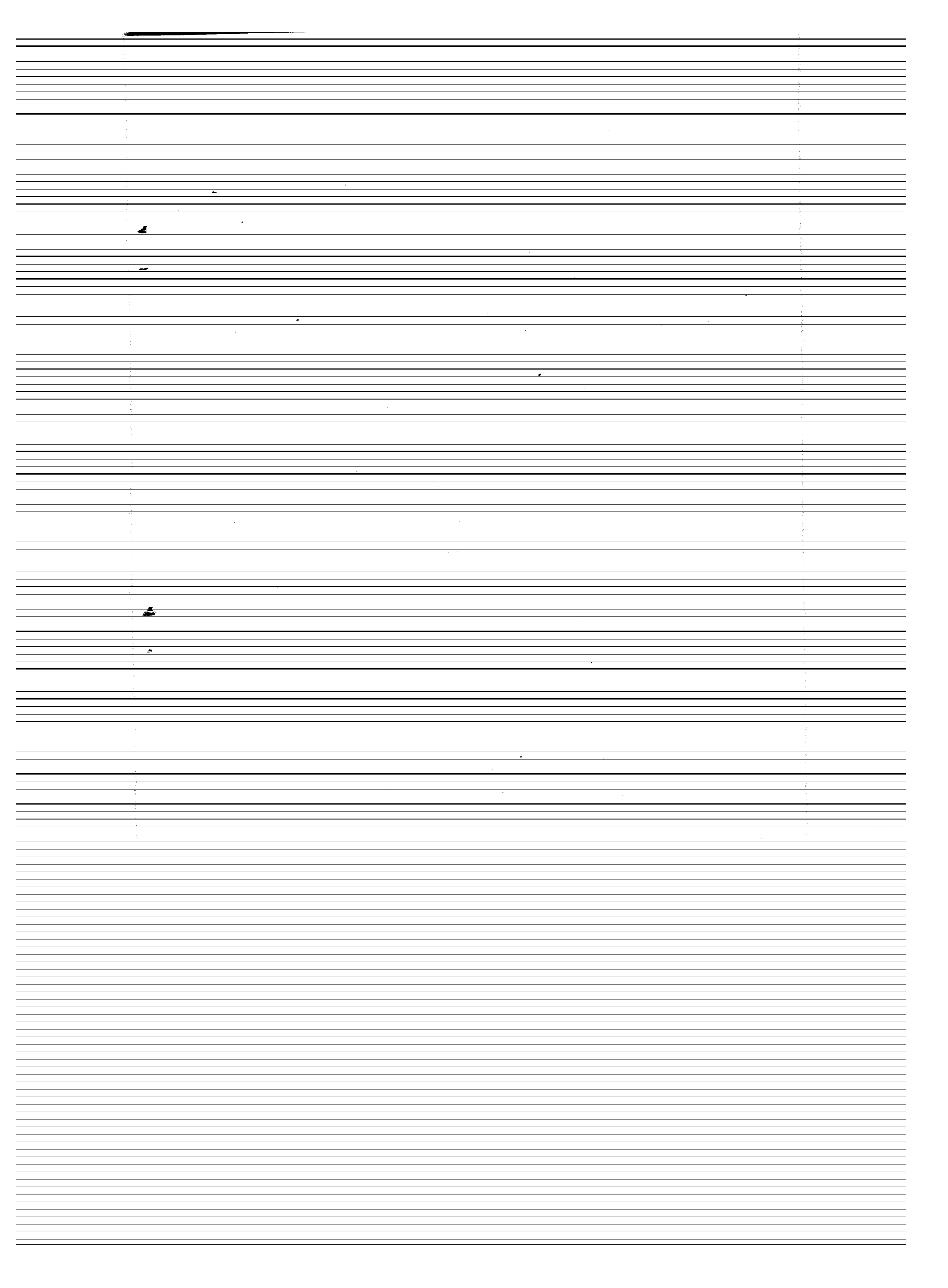
– وإذا كان النثر الفني يعبر عن حاجة الإنسان المتحضر كما يقال ، فهل يعني ذلك أنه لا يوجد في عصور البداوة من أهل الفصاحة من يعبر عن حاجته بأسلوب نثري . إذن ما بالنا نقرأ الكثير من الخطب والحكم والأمثال والوصايا ، وكلها من نتاج الجاهلية ، ولعلك تقول إنها قلة ، فأقول لك لعل الكثرة منها قد ضاعت كما ضاع الكثير من الشعر الجاهلي .

❁ ***الخلاصة*** : أنه لعلك أيها القارئ قد وجدت فيما ذكر آنفاً ما يبرر ما أريد قوله وهو وجود النثر قبل الشعر، وظهور الشعر قبل النثر .

الفصل الخامس

تحديد العصر - معنى الكلمة

الأدب الجاهلي ، أقسامه



❊ العصر الجاهلي

تحديد العصر :

قد يتبادر إلي الأذهان أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة ، فهو يدل علي الأطوار التاريخية للجزيرة العربية فــي عــصورها القديمة قبل الميلاد وبعده ، وهذا فهم خاطئ ، لأن الباحثين في الأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن به هذا الاتساع من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أي عند مائــة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، أو علي أقصي تقدير قرنين أي مئتي عام . وما قبل ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولي .

والباحــثون في الأدب الجاهلي يقصرون هذا العصر علي تلك الفترة ويكتفون بها ، لأنها عندهم هي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها ، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي .

وقــد لاحظ الجاحظ ذلك بوضوح فقال : (أما الشعر العربي فحديث المــيلاد صــغير السن أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة ، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلــي أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغايــة الاستظهار فمائتي عام) [١] وما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول يكتنفه الغموض .

---

[١] الحيوان جـــ١ صـــ ٧٤ طبعة الحلبي .

كلمة جاهلية :

ينبغـــي أن نعرف أن كلمة " جاهلية " التي أطلقت علي هذا العصر ليـــست مـــشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه [١] وإنما هي مـــشتقة من الجهل بمعني السفه والغضب والنزق ، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل علي الخضوع والطاعة والانقياد لله عز وجل ، وما يطـــوي فيها من سلوك خلقي كريم ، ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحـــديث النبوي الشريف والشعر الجاهلي بهذا المعني من الحمية والطيش والغضب .

قـــال تعالـــي: " قالـــوا اتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلـــين " [٢] وقـــال أيضا " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلـــين " [٣] وقـــال أيـــضا " وعـــباد الرحمن الذين يمشون علي الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " [٤]

– وفي الحديث النبوي أن – رسول الله صلي الله عليه وسلم – قال لإبي ذر وقد عير رجلاً بأمه " إنك امرؤ فيك جاهلية " .

وفي الشعر الجاهلي جاء قول عمرو بن كلثوم التعلبي :

إلا لا يجهلـــن أحد علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينـــا

---

(١) انظر مادة جاهلية في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) البقرة الآية ٦٧

(٣) الأعراف الآية ١٩٩

(٤) الفرقان الآية ٦٣

- وواضـــح في هذا النصوص جميعاً أن الكلمة استخدمت من قديم للدلالـــة علي السفه والطيش والحمق ، وقد أخذت تطلق علي العصر القـــريب من الإسلام أو بعبارة أدق علي العصر السابق له مباشرة ، وكـــل مـــا كـــان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرمه الدين الحنيف من موبقات [١] .

- ودائماً وأبداً نعني بدراسة الأدب الجاهلي خاصة الشعر ، لأنه لغة الحياة البدوية وصورتها ، والصوت المعبر عن آمال الإنسان وآلامه في كل وقت وعلي كافة المستويات .

فقـــد كـــان لـــه دور عظيم في تسجيل مآثر العرب وحياتهم ورصد عـــاداتهم وتقالـــيدهم وعقائدهم قبل ظهور الإسلام ، فنحن لم نعش عـــصر الجاهليـــين ولم نرهم ، وإنما تعرفنا علي عقائدهم وصفاتهم وعـــاداتهم وصـــورة كل ما يدور بينهم مما أثر عنهم من قصائد أو مقطوعات شعرية .

ولـــذلك صـــدق من قال : (الشعر ديوان العرب) أي إذا أردت أن تتعرف علي العربي في بيئته وبيته وحياته الخاصة والعامة وصفاته ومكارمـــه وأخلاقه سواء الحسنة أو المذمومة فاقرأ في شعر العرب تجد صدي ذلك واضحا جلياً فيما تركوه من مقولات شعرية أو نثرية ما بين مثل وخطبة وحكمة .... الخ

---

[١] العصر الجاهلي / شوقي ضيف صـــ ٣٩

وأمـــام هـــذه المنزلة العالية للشعر والشعراء لم يملك التاريخ إلا أن يـــسجل من صنوف هذا الفن وألوانه ما ليس له نظير في حياة غير العرب من الأمم .

وحسبنا في هذا أن نشير إلي بعض ما أورده صاحب (العقد الفريد) فـــي هـــذا الـــشأن لنعرف إلي أي مدي كان قدر هذا الفن في حياة العرب فقد قال : (ومن الدليل علي عظم الشعر عند العرب وجليل خطـــبه فـــي قلـــوبهم أنه لما بعث النبي – صلي الله عليه وسلم – بالقـــرآن المعجز نظمه المحكم تأليفه ، وأعجب قريش ما سمعوا منه قالـــوا : ما هذه إلا سحر وقالوا في النبي (صلي الله عليه وسلم) : (شاعر نتربص به ريب المنون) .

❉ **الأدب الجاهلي قسمان :**

١) **الشعر :** وهو كما مر الكلام الموزون المعبر عن الأخيلة البديعة والصور البليغة ، وهو أقدم الآثار الأدبية لعلاقته بالشعور ، وصلته بالطبع ، وعدم احتياجه إلي تعمق في العلم ، أو تقدم في المدنية .

٢) **النثـــر :** وهـــو أيـــضا كما مر الكلام الخالي من الوزن والقافية مسجعاً كان أو غير مسجع .

والنثر أنواع منه المثل ، والخطبة ، والوصية ، الحكمة .... الخ

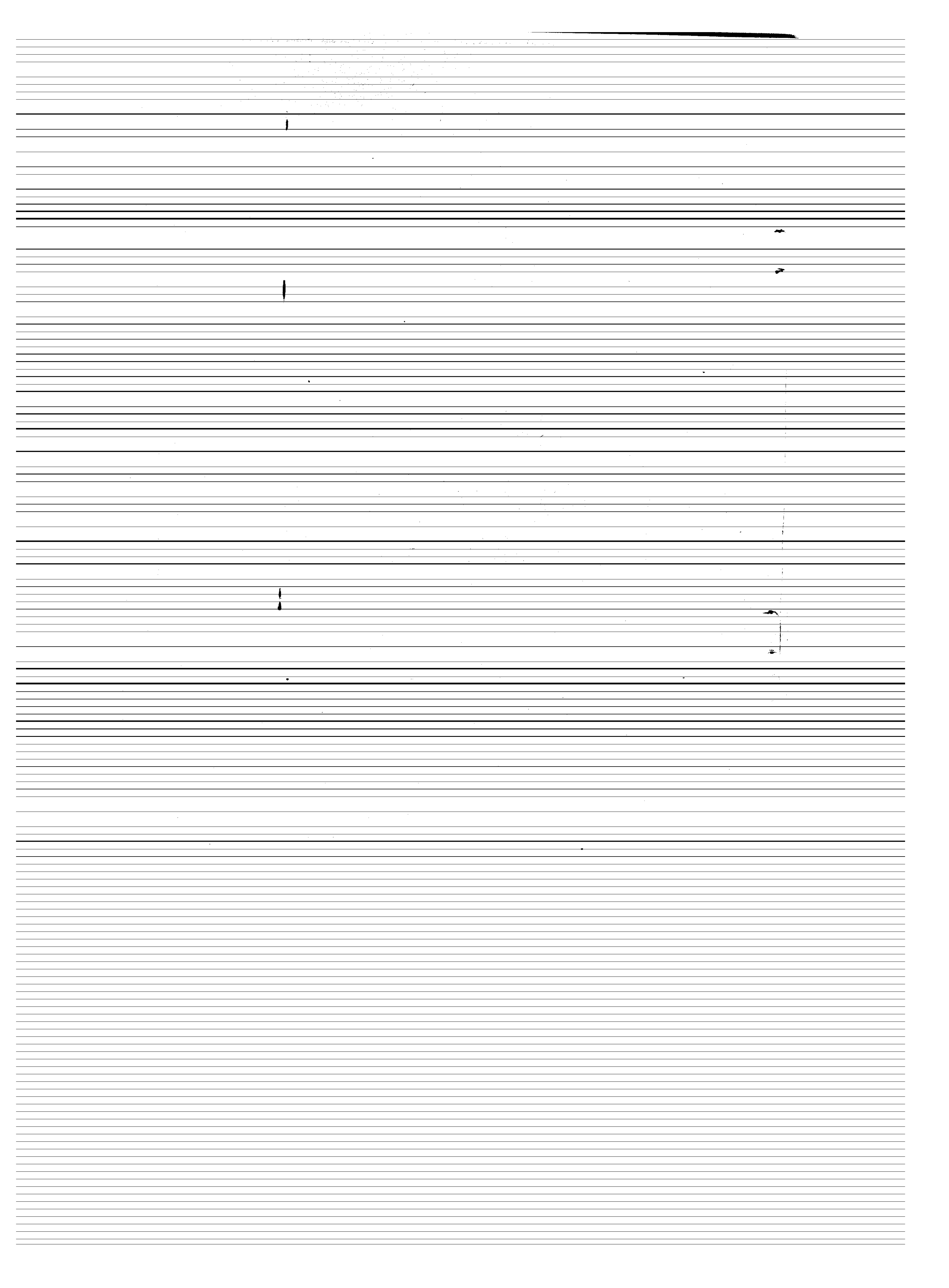
فالمـــثل : جملـــة مقتطعة من القول أو مرسلة بذاتها تنقل عن عمن وردت فـــيه إلـــي مشابهه بدون تغيير ، وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية .

والحكمـــة : قـــول رائع موافق للحق ، سالم من الحشو ، وهي ثمرة الحنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة .

والخطبة والوصية : كلتاهما يراد بها الترغيب فيما ينفع وعما يضر إلا أن الخطـــبة تكـــون علي ملأ من الناس في المجامع والمواسم ، والوصية تكون لقوم معينين في زمن معين .

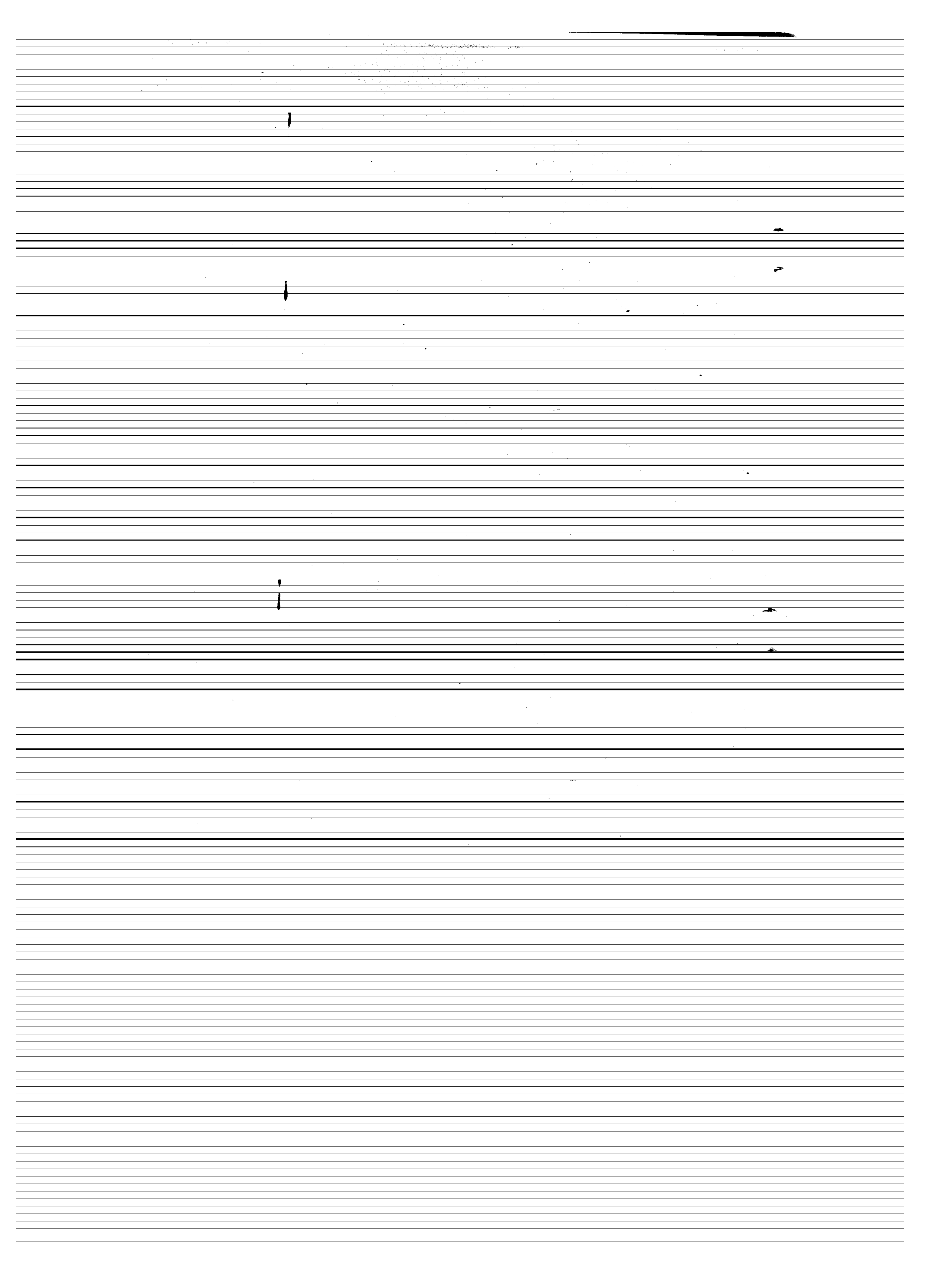
الباب الثاني

الشعر الجاهلي - مدارسه - أنواعه



الفصل الأول

رواية الشعر ـ تدوينه ـ قضية انتحال الشعر الجاهلي



❋رواية الشعر الجاهلي ورواته

مـــن الثابت في العصر الجاهلي أن الشعراء كانوا يحافظون علــــي نتاجهم الشعري عن طريق الرواية ويعتمدون عليها ، وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها .

ومعنــــي ذلـــك أن النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفوية ، وقد ظلت الرواية متبعة أزمانا متتالية في الإسلام، ويدل علي ذلك أقوي الدلالة أن الحديث النبوي ظل في أغلب أحواله يعـــتمد علي الرواية والمشافهة إلي نهاية السنة الأولي للهجرة ، وإذا كـــان الحديث بما له من قدسية لم يعمدوا إلي تدوينه تدويناً عاماً إلا بعد مرور نحو قرن علي الهجرة الشريفة فأولي أن يكونوا قد تبعوا ذلك في الشعر الجاهلي .

ومـــن يرجع إلي شعر الجاهلين يجد شعراءهم يذكرون الرواية وأنها وسيلة انتشار الشعر في القبائل التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلي أفاق الجزيرة يقول الشاعر :

ندمت علي شتم العشيـــرة بعدمـــا * مضت واستتبت للرواة مذاهـــبه

فأصبحت لا أستطيع دفعا لما مضي * كما لا يرد الدر في الضرع حالبه

فالـــشاعر نـــادم علي هجائه لقومه لأنه شاع في العرب عن طريق الرواة ولم تعد له حيلة في رده .

- فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيعة لنشره وذيوعه من جيل إلي جيل ومن قبيلة إلي أخري .

- وكـــان لكـــل شاعر مشهور راوية أو أكثر يتلقون عنه ، وهؤلاء الـــرواة مـــنهم الـــشعراء الذين تتلمذوا في أول الأمر للشاعر الذي يـــروون عـــنه ويتخذون في نظمهم شعره مقلدين ثم معتمدين علي أنفـــسهم بعـــد أن تكتمل لهم أدوات الفن ، ومنهم أفراد قبيلة الشاعر وذلك لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم .

- كل هذا ساعد علي نشر الشعر والحفاظ عليه ، ولهذا كتب للشعر الجاهلـــي أن يظل حياً في وجدان العرب مستقراً في أفكارهم ، كما ســـاعد علـــي كثرة رواية الشعر آنئذ أن العرب كانت تعير من قلت روايته للشعر سواء كان ذلك المقل هو الراوي أو القبيلة ، ومن ذلك مـــا يقوله بعض بني بكر معيراً تغلب لكثرة ترددها لقصيدة واحدة هي معلقة عمرو بن كلثوم ، وكان ليس لها شعر سواها ، يقول :

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبداً مذ كـــان أولهـــم   يا للرجال لشعر غير مثئوم

* وكان من يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعراً يروي عنه ، وما يزال يروي له ولغيره حتي ينفتق لسانه ، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفـــن ، ونـــص صاحب كتاب " الأغاني " علي سلسلة من هؤلاء

الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض ، وقد بدأها بأوس بن حجـــر التميمي ، فعنه أخذ الشعر ورواه حتي أجاد نظمه زهير بن أبي سلمي المزني ، وكان لزهير راويتان كعب ابنه ، والحطيئة ، ثم تلقن الشعر عن الحطيئة ورواه هدبة بن خشرم العذري ، وعن هدبة أخذ جميل صاحب بثينة وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة .

– نحـــن إذن بـــإزاء مدرســـة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل في طبقات أو حلقات ، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلي لاحقتها ، وظلـــت الحـــال كذلك حتي جاء الإسلام ، فلم يقف الإسلام في وجه الشعر بل وجهه وجهة حسنة تخدم الدعوة وتخدم الإنسانية ، ومع أن المسلمين قد أنكبوا علي تلاوة القرآن الكريم إلا أنهم لم يتركوا الشعر طعمـــة للنـــسيان ، فقد كان رسول الله " صلي الله عليه وسلم يحث حسان بن ثابت وغيره من شعراء الأنصار علي هجاء قريش والرد علـــي هجاء شعرائها ، وكان كثيراً ما يستنشد الشعر من الصحابة ، حتـــي شـــعر أعدائه من مثل أمية بن أبي الصلت ، قال الشريد بن سويد الثقفي : " استنشدني النبي صلي الله عليه وسلم " شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته ، فأخذ النبي صلي عليه وسلم يقول : هيه ، هيه حتي أنشدته مائه قافية .

– وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلي ، وكان يتمثل به أحياناً فـــي خطابـــته وكذلك كان عمر ، وهذا نفسه شأن الصحابة جميعاً ،

ومعنـــي ذلـــك أن روايـــة الشعر الجاهلي كانت مستمرة في صدر الإسلام ، وقد أخذت تظهر عوامل تشد من أزرها وتقوي من شأنها كحاجـــة الـــناس إليه للاستفادة به في معرفة معاني بعض الألفاظ ، ومعـــرفة الأنساب ، كما زادت رواية الشعر عندما اشتدت الحروب بين علي ومعاوية وباقي الأحزاب السياسية .

- كمـــا كـــان رواة فـــي العـــصر الأموي والعباسي يروون الشعر الجاهلـــي بقـــصد نشره في الناس ، وأكثر من هذا نشأت طبقة من الـــرواة المحترفين الذين اتخذوا من رواية الشعر الجاهلي عملاً لهم ومن هؤلاء حماد الراوية ، وخلف الأحمر والمفضل الطبي .

❋ مدرستا الـــرواة

ويقـــصد بمدرســـتي الرواة مجموعة من الشعراء الحضريين الذين احتـــرفوا روايـــة الـــشعر الجاهلي ، وكون هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين :

١) مدرسة في الكوفة ٢) ومدرسة في البصرة

وذلـــك لأنهم عاشوا غالباً في البصرة والكوفة ولم يكونوا يقفون عند روايـــة الـــشعر القـــديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخـــبار عن الجاهلية وأيامها ، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات في المـــسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب ، وفي أثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة ،أو يفسرون لهم ظروف النص التاريخية .

أما مدرسة الكوفة : فقد كانت تعرف بعدم تحري الدقة وعدم التشدد في روايتهم ، ولهذا كثرت الأشعار عندهم وتضخمت روايتهم ولم تقتصر هذه التهمة " عدم تحري الدقة " علي رواية الشعر فحسب بل عرف عنها ذلك في الحديث النبوي أيضاً حتي كان مالك بن أنس يسميها (دار الضرب) يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها ، ويقول أبو الطيب اللغوي : (والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثرة مصنوع ومنسوب إلي من لم يقله وذلك بين في دواوينهم)

– وكان علي رأس هذه المدرسة في الكوفة حماد الراوية ، وكان متهماً كثير الوضع ولا يوثق بما يرويه ، ويروي عن الهيثم بن عدي أنه كان يقول : " ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد " هذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها جعلتهم يطلقون اسم الراوية علماً عليه ، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه ، فكان ينظم علي لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به وكثر منه ذلك حتي عرف به واشتهر . ويقال إنه مدح بلال بن أبي بردة المتوفي بعد سنة ١٢٦ بقصيدة وكان ذو الرمة حاضراً ، فقال له : إنها ليست لك ، وسرعان ما اعترف بأنها جاهلية .

يقول الجاحظ : (ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقاً ماجناً زنديقاً)[١] ومن رواة الكوفة أيضاً المفضل الضبي ، بيد أنه كان يختلف عن حماد فقد كان المفضل ثقة يوثق بروايته ، ومعني ذلك أن رواة الكوفة ليسوا في الجملة متهمين بل كان بينهم من كان يوثق بروايته ويحاط بنسيج من الأمانة والدقة والتحري .

أما مدرسة البصرة : فقد كانت تعرف بالدقة والتحري والتشدد وربما رجع ذلك إلي أن رأس رواتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أميناً ، وكان من مؤسسي المدرسة النحوية في البصرة ، وأحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة الذكر الحكيم ، وكان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب ، وكانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلي قريب من السقف ... ثم إنه تنسك فأحرقها ، وهذا الإحراق لا يغير من الأمر شيئاً فإن ما رواه حمله عنه تلاميذه البصريون وكان أمامهم وقدوتهم ، ويحكي عنه أنه قال : " ما زدت في شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعني ما يروي للأعشى من قوله :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت

من الحوادث إلا الشيب والصلعا

---

(١) الحيوان جـ ٤ صـ ٤٤٧ .

– ومــن رواة البصرة أيضاً خلف الأحمر ، ولم يكن يقل عن حماد في معرفته بأشعار العرب وأخبارهم بل لعله يتقدمه . ومنهم أيضاً الأصــمعي الــذي أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية وأشعارها وأخبارها ، وقالوا عنه أنه ثقة عدل .

– وجــاء بعــد من قدمنا تلاميذ لهم من رواة القرن الثالث ، وعلي رأســهم أبو عمرو الشيباني ، وابن الأعربي الكوفيان ، ومحمد بن حبــيب ، وابن السكيت ، وثعلب ، وانتهت الرواية في البصرة إلي أبي سعيد الحسن بن الحُسين السكري .

– ويتــضح من كل ما سبق أن رواية الشعر الجاهلي أحيطت بكثير مــن التحقيق والتمحيص – وإن كان رواة متهمون – فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد أمثال المفضل الكوفي والأصمعي البصري .

– فلــنهمل إذن مــن الــشعر الجاهلي ما جاءنا منه عن أمثال حماد وخلــف الأحمــر وكذلك ما جاءنا منه عن طريق أصحاب الأخبار المتــزيدين أمثال محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام . أما ما اتفق عليه أو جاءنا عن الأثبات الثقات فينبغي أن نقبله .

* تدوين الشعر الجاهلي

لم يدون العرب أشعارهم في الجاهلية ، ودليل ذلك أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أنه نقل عن قراطيس كانت مكتوبة في الجاهلية ، كما أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أن شاعراً في الجاهلية ألقي قصيدته من صحيفة مدونة إنما كانوا ينشدون شعرهم إنشاداً ، ومن كان منهم يعد قصيدته في عام أو أقل من عام كان يعدها في نفسه ويرددها في ذاكرته . ثم ينشدها ويحملها الناس عنه . وظل هذا شأن العرب في صدر الإسلام ، فهم لا يدونون شيئاً غير القرآن الكريم حتى لا يختلط به ما ليس منه .

- ثم بعد فترة أخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه وفي تقييد بعض الأخبار التاريخية ، وكان الذين يدونون الموضوعات الإسلامية كالمغازي والسير يعرضون لذكر العرب الجاهليين ، والأنساب ، ويستشهدون علي ما يقولون بالشعر الجاهلي .

ثم دون بعد ذلك الشعر الجاهلي والإسلامي وكان في حقبة متأخرة من عصر بني أمية ، وأخذت حركة التدوين تنمو حتي بلغت مبلغها من القوة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري .

- ويظهر أنهم لم يكونوا يدونون أشعار شعرائهم وحدها ، بل كانوا يدونون معها أخبارهم ، وإن صحت هذه الأخبار كانت دليلاً علي أنه

أخذت تظهر مع أوائل القرن الثاني مدونات تاريخية للقبائل ، لعلها هي التي أعدت فيما بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها علي حده . وإذا كان الرواة الأولون لم يدونوا ما رووه لطلابهم ، فإن الرواة التالين لهؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع الفضل إليهم في تدوين الشعر الجاهلي تدونياً منهجياً قائماً علي التوثيق والتخريج ، وعلي رأسهم الأصمعي ، وقد حصر اهتمامه في جمع الشعر الجاهلي في دواوين ومجموعات صحيحة ، وكان هؤلاء الرواة المدونون لا يكتفون بالسماع من أغلب الرواة السابقين ، فكانوا يرحلون إلي الصحراء ليتوثقوا مما يروونه على نحو ما هو معروف عن الأصمعي نفسه ، وعن أبى عمرو الشيباني ، ثم أخذت موجة من هذا التدوين تتسع اتساعا شديدا حتى أن الناظر في هذا النشاط لا يكاد يبلغ حصره وعده عدد الكتب التي ألفت ودونت في ذلك .

❁ مصادر الشعر الجاهلي

ظل الشعر الجاهلي – كما سبق – يتناقل عن طريق الرواية الشفهية فتـــرة ليـــست بالقليلة ، حتى جاءت مجموعة من الرواة المخلصين أخذوا على عاتقهم تحقيق هذا الشعر وتمحيصه وتخليصه مما ليس منه ثم تدوينه . وكان لابد لهذا الشعر المدون من التوثيق ، والتوثيق يأتي من مصادر متعددة .

ومن أشهر وأهم المصادر التي اعتمد عليها الشعر الجاهلي :

١) المصدر الأول : المعلقات

وهـــي قـــصائد يزعم جمهور المؤرخين أن العرب اختارتها فكتبتها بمـــاء الـــذهب على القباطي (نوع من القماش) ثم علقتها بالكعبة إعجابا بها و إشادة بذكرها وقد بقي بعضاً منها حتى يوم فتح مكة ، وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام .

و أصـــحابها هم امرؤ القيس ، و زهير بن أبى سلمى ، و طرفة بن العـــبد ، و لبـــيد بن ربيعة ، و عنترة بن شداد وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة .

– ومن الناس من ينكر تعليقها على الكعبة ويقول أنها سميت معلقات لنفاستها أخذاً من كلمة " العلق " بمعنى النفيس وهو كلام كما يقول الزيات بغير دليل قائم ولا حجة مقنعة ، ويقول: إن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة كان سنة في الجاهلية بقى أثرها في الإسلام .

فمـــن ذلك تعليق قريش الصحيفة التي قاطعوا بها بني هاشم وعبد المطلـــب لحمايـــتهم الرســـول " صلي الله عليه وسلم " ، كما علق الرشيد عهده بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين فالمأمون ......: الخ

وقـــد عنى الشراح بهذه القصائد " المعلقات " فشروحها مراراً ومن ذلك " شرح الزوزني " ثم " شرح التبريزي " .

٢) المصدر الثاني : المنتخبات الشعرية العامة

وهي مجموعة من الكتب الشعرية جمعها أصحابها لشعراء آخرين ، و اتخذوا من هذا الانتقاء والانتخاب منهاجاً لهم .

وكانوا ينتقون المقطوعات والقصائد الشعرية التي تروق لذوقهم هم .

ومن هذه الاختيارات :

__أ) المفـــضليات :__ وســـميت بـــذلك نسبة إلى جامعها وهو " المفضل الـــضبي " راوي الكـــوفة الثقة . وهي مائة وستة وعشرون قصيدة أضيف إليها أربع قصائد وجدت في بعض النسخ ، وقد تزيد وتنقص وتـــتقدم القصائد و تتأخر بحسب الرواية عن المفضل ، وقد جمعها صاحبها لتثقيف المهدي بن الخليفة العباسي أبى جعفر المنصور حين عهد إليه بذلك .

__ب) الأصـــمعيات :__ وسميت بذلك نسبة إلى راويها " الأصمعي " وقد بلـــغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهي موزعة على ٧١ شـــاعراً ، ولم يتعلق بها الشراح كالمفضليات لأن الأصمعي لم يرو كثيراً من القصائد كاملة بل اكتفى بمختارات منها .

ج) *جمهـــرة أشـــعار العـــرب :* " لأبي زيد محمد بن أبى الخطاب القرشي " وتضم هذه الجمهرة تسعاً وأربعين قصيدة طويلة موزعة علـــى ســـبعة أقـــسام في كل قسم سبع قصائد : القسم الأول خاص بالمعلقات . والقسم الثاني : المجمهرات وهي قصائد لبعض الشعراء مـــنهم أمـــية بـــن أبـــى الصلة و عبيد بن الأبرص والقسم الثالث : المنتقـــيات أي المخـــتارات ، القسم الرابع : المذهبات وربما سميت بـــذلك لأنهـــا استحقت أن تكتب بالذهب وهي لشعراء من الأنصار جاهليـــين ومخـــضرمين ، القـــسم الخـــامس : عيون المراثي القسم الـــسادس : المشوبات وهي لمخضرمين شابهم الكفر والإسلام القسم السابع : الملحمات وجميعها لشعراء إسلاميين .

(د) *مخـــتارات ابـــن الـــشجري* : وهي مختارات من شعر جاهلي وإسلامي نسبت لابن الشجري واسمه هبة الله بن علي بن محمد بن حمـــزة الحسني . وهذه المختارات موزعة علي ثلاثة أقسام . الأول لـــشعراء مـــنهم الشنفري وطرفة ولقيط الإيادي والمتلمس ، والثاني مختارات من دواوين زهير وبشر بن أبي حازم وعبيد بن الأبرص، والثالث مختارات من ديوان الحطيئة .

هـــ) *دواوين الحماسة :* وأشهرها ديوان الحماسة لأبي تمام ، وقد شـــرح هذا الديوان مرات عدة وحماسته موزعة علي عشرة أبواب أكبـــرها بـــاب الحماسة لذا سميت بهذا الاسم ، ومنها أيضا حماسة

البحتري وهي مقطوعات قصيرة موزعة علي مائة وأربعة وسبعين بابا أكثرها في نزعات خلقية ولم يهتم القدماء بشرحها .

ولابــن الشجري حماسة أغلب أشعارها منتخب من الشعر الجاهلي وهناك الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري.

٣ـ المصدر الثالث : الدواوين

وهي نوعان

(أ) دواويــن مفــردة : وهــي لشعراء جاهليين منهم : امرئ القيس و النابغة و زهير و طرَفة وعنترة وعلقمة وعلي الرغم من طبع هذه الدواوين ونشرها أكثر من مرة فإن هناك دواوين مخطوطة لم تنشر.

(ب) دواوين القبائل : وهي التي جمع منها أبو عمر إسحاق بن مرار الــشيباني نيفاً وثمانين قبيلة فقدت جميعها ولم يبق منها إلا قطع من ديــوان هــذيل نشرت في خمس مجموعات . أربع منها في أوروبا والخامسة نشرتها دار الكتب المصرية .

٤) المصدر الرابع : كتب التراث

ومــن أهــم هذه الكتب التي اشتملت علي شعر جاهلي كثير " شرح الــنقائض " لأبي عبيدة ، و" الكامل " لابن الأثير ، و" العقد الفريد" لابن عبد ربه الأندلسي .

ومــن الكــتب الجــيدة أيضا : طبقات الشعراء لابن سلام ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد .

وهناك أشعار جاهلية كثيرة في كتب النقد مثل " نقد الشعر " لقدامة ابن جعفر ، و" الصاعتين" لأبي هلال العسكري ، و" الوساطة بين المتنبي وخصومه " للقاضي الجرجاني ، و" العمدة " لابن رشيق .

ومن الكتب التي احتفظت بكثير من الأشعار والتراجم والأخبار كتاب " الأغانـــي " لأبـــي الفـــرج الأصفهاني ، و كتاب " خزانة الأدب " للـــبغدادي وهو شرح علي شواهد الرضي شارح كتاب الكافية لابن الحاجب وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين .

* قضية الانتحال في الشعر الجاهلي

قضية الانتحال في الشعر الجاهلي ظاهرة غير منكورة ، فقد دخل فيه ما ليس منه وقد أشار إلي ذلك العلماء والرواة ، وحاولوا جهدهم إبعاد المزيف والتنبيه عليه ، وتمييز المنحول من غيره ، وبلغ من حرصهم علي ذلك إهمال الرواة الوضاعين أو النحالين ، فقد كان الضبي والأصمعي وغيرهم لهؤلاء بالمرصاد .

- وكان من أوائل الكتب التي أسهبت في هذا الموضوع كتاب " طبقات فحول الشعراء " لابن سلام الجمحي وقد أثار ابن سلام تلك المشكلة وردها إلي ***عاملين : عامل القبائل التي كانت تتزيد في شعرها لتتزيد في مناقبها ، وعامل الرواة الوضاعين .***

- وقد لفتت هذه القضية - قضية انتحال الشعر الجاهلي - أنظار الباحثين المحدثين من المستشرفين والعرب وبدأ النظر فيها " نولدكه" إلا أن بعض المستشرفين من النصاري واليهود الذين ظهروا في القرن السابع عشر الميلادي وما بعده وتخصصوا في الدراسات العربية الإسلامية لأهداف استعمارية قد ساقوا قولاً يهدفون منه هدم الشعر الجاهلي عن طريق إثارة الشكوك حوله والإتيان عليه من أساسه ، فزعموا أنه منحول ومكذوب ، وما نظم إلا في العصور الإسلامية نحله الوضاعون المزيفون لشعراء جاهلين لسبب من أسباب الوضع والانتحال أو ربما راق لهم ذلك إذ وجدوا فيه ما يقربهم من أهدافهم الخبيثة .

– وعلـــي رأس هــؤلاء المستشرفين " مرجليوث " الذي زعم أن الـــشعر الجاهلـــي مدسوس مكذوب علي الشعراء الجاهليين صنعه الـــرواة الوضـــاعون من الإسلاميين أمثال حماد ، وجناد ، وخلف الأحمر .

– وقـــد ردد هذا الرأي من الأدباء العرب الدكتور / طه حسين الذي درس القـــضية دراســـة مستفيضة في كتابه " الشعر الجاهلي " الذي أحدث به رجة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للرد عليه ، ولم يلبث أن ألف كتابه " في الأدب الجاهلي " الذي نشره فـــي ســـنة ١٩٢٧ وفـــيه بـــسط القول في القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلاً .

– وقد ردد الدكتور طه حسين ما ساقه مرجليوث مما يزعم أنها تقوم أدلة علي ما يقول وهذه بعضها بإيجاز :

١) يقـــول مـــرجليوث ومن بعده طه حسين أن الشعر الجاهلي فيه إشـــارات إلـــي قـــصص ديني ورد في القرآن الكريم ليوم الحساب والقيامة والغيب .... وما ظهر من نقوش فيها ذكر للآلهة وما يتصل بالعـــبادة فـــي الجاهلية بينما لا يوجد مثل ذلك في الشعر الجاهلي ، وبمعنـــي آخـــر الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الدينية عندهم فهو لا يمثل الجاهليين الوثنين ولا من تنصروا منهم ، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآلهة المتعددة .

كمـــا يزعم أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الاقتصادية والسياسية لدي عرب الجاهلية .

٢) يزعم طه حسين ومن قبله مرجليوث أن الاختلاف في اللغة بين القـــبائل واضح ، فقبائل الشمال تختلف في لغتها عن قبائل الجنوب فـــضلاً عـــن اختلافها فيما بينها سواء في الشمال وحده أو الجنوب وحـــده وأن الـــشعر كله جاء بلغة واحدة هي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب ، ويقولان لو أن هذا الشعر صحيح لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية .

الرد عليهم :

هـــذه الأمور السابقة التي زعموها أدلة وبراهينا علي الانتحال تسقط واحدة واحدة إذا عرفنا ما يلي :

١) أن الحـــياة الدينـــية في الجزيرة العربية كانت خليطاً من الوثنية واليهودية والنصرانية والمجوسية والحنيفية وعبادة الكواكب ، وماذا عسي أن يقول يهودي لنصراني أو وثني لصابئ ، فلم يكن لهم دين قـــوي يظهر في عقيدتهم كما حدث في الإسلام ، ثم إن الشاعر في الجاهلية كان عليه أن ينقي لغته مما لا يقبله غيره خاصة في العقائد – ثـــم إن الـــشعراء الذين وصلت إلينا أخبارهم – علي قلتهم – لم يـــصلنا مـــن أشعارهم إلا بعضها ، وضاع سائرها في أثناء الفتوح الإســـلامية وذلـــك لأن الـــناس انشغلوا عن رواية الشعر بالإسلام

والحرب ، وقد يكون الشعر الديني حظي بالضياع لعدم تدوينه ، أو لعـل الـرواة سـكتوا عنه هذه الأشعار لأنها وثنية والإسلام يجب ما قبله .

ويـضاف إلي ما تقدم من أسباب ندرة هذا اللون من الشعر أنه كان يـصدر من الشاعر لقبيلته ، أو يكون علي هيئة حديث نفسي يصور عاطفـة الـشاعر نحـو دينه ، ولو سمع هذا الشعر كثير من الناس لحفظوه وعملوا علي إذاعته .

– ومـع كل هذا فلم يخل الشعر الجاهلي من تصوير بعض مظاهر الحياة الدينية عندهم فهذا زهير يقول :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله

رجـال بنوه من قريـش وجرهـم

وهذا امرؤ القيس الذي قال حين استقسم بالأزلام عند (ذي الخلصة) ليقدم علي الحرب بالأخذ بثأر أبيه فنهاه القدح فقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المُقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

وهو القائل :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها

روى بها من فحول الأرض أيباساً

– وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا سمع شعر أمية بن أبـــى الصلت قال " ذاك رجل آمن بلسانه وكفر بقلبه " وقد عارض هــذا الــرجل رسول الله بعد أن جاء الإسلام حسداً ، وقال لما ظهر الرسول إنما كنت أرجو أن أكونه .

ومن أشعاره التي تعبر عن عقيدته وعقيدة قبيلته :

لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شيء أعلى منك مجداً وأمجدا

– فلم هذا التجاهل من المستشرقين وغيرهم .

وأما أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الاقتصادية فهذا تعسف منهم ، فلقــد اتــصل الــشعر الجاهلي بالحياة الاقتصادية ، هذه الحياة التي ارتــبطت بحــس الشاعر ، وكيف لا وهي التي تساعد المرء علي الحياة الكريمة فضلاً عن أنها تساعده علي الحفاظ علي نفسه وآله ، وتــسهل لـــه الأمور الكثيرة في الحياة . فهذا طرفة بن العبد يسرف ماله ويهلكه في الخمر حتي افتقر وتحامته العشيرة يقول :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلي أن تحامتني العشيرة كلهـــا وأفردت إفراد البعيـــر المعـــبد

– وهذا عروة بن الورد يقول :

دعيني للغنى أسعي فإني رأيت الناس شرهم الفقير

– ثم أن سبيل الحياة الاقتصادية بالعقل والفكر والتدبير وهي بعيدة عـــن العاطفـــة ، وإذا كانت الحياة الاقتصادية قوامها الناقة والخيل والأبقار الوحشية فقد وصف ذلك كثير من الشعراء كامرئ القيس ، وزهير وغيرهما ويذكر الشاعر الجاهلي بعض ما استقر عندهم من أمور اقتصادية فيقول :

وإذا شربــت فإننـــي مستهلــك مالي وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصد عند ندي وكما علمت شمائلي وتكرمي

– وإذا انتقلـــنا إلي الحياة السياسية وقول المستشرقين ومن لف لفهم فيها ، فإننا نجد أنه يحق لنا أن نعجب أشعر العجب فالشعر الجاهلي معظمـــه يصف حياة العرب السياسية كوصف الحروب والصراعات والوقائـــع والأيـــام ، ومن ذلك ما جاء في شعر عنترة ، وعمرو بن كلـــثوم وأشعار امرئ القيس التي قالها وهو بصدد الأخذ بثأر أبيه ، وأشـــعار المهلهـــل وزهيـــر بن أبي سلمي ، وكتاب أيام العرب في الجاهلية مملوء بهذه الأخبار والأشعار ، ونجد ذلك في معلقات بعض الـــشعراء الـــسابقين ، وكل هذا الشعر يمثل جوانب من حياة العرب الـــسياسية في الجاهلية . من ذلك أبيات زهير في معلقته التي صور فيها فظائع الحرب وويلاتها وأشاد بصنيع السيدين اللذين أصلحا بين المتحاربين من عبس وذبيان وتحملا ديات القتلي يقول :

سعي ساعياً غيظ بن مـــرة بعدمـــا   تبزل ما بين العشيـــرة بالـــدم

تداركتما عبســاً وذبـــيان بعـــدمـــا   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلنا أن نـــدرك السلـــم واسعـــاً   بمال ومعروف من الأمر نسلـــم

فأصبحتما منها علي خيـــر موطـــن   بعيدين فيها من عقوق ومأثـــم

٢) أما ما قاله المستشرقون من الناحية اللغوية وأن الشعر جاء بلغة واحـــدة ولا يمـــثل أكثـــر لغـــات العرب في الشمال أو في الجنوب واســـتدلالهم بقـــول أبي عمرو بن العلاء (ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا)

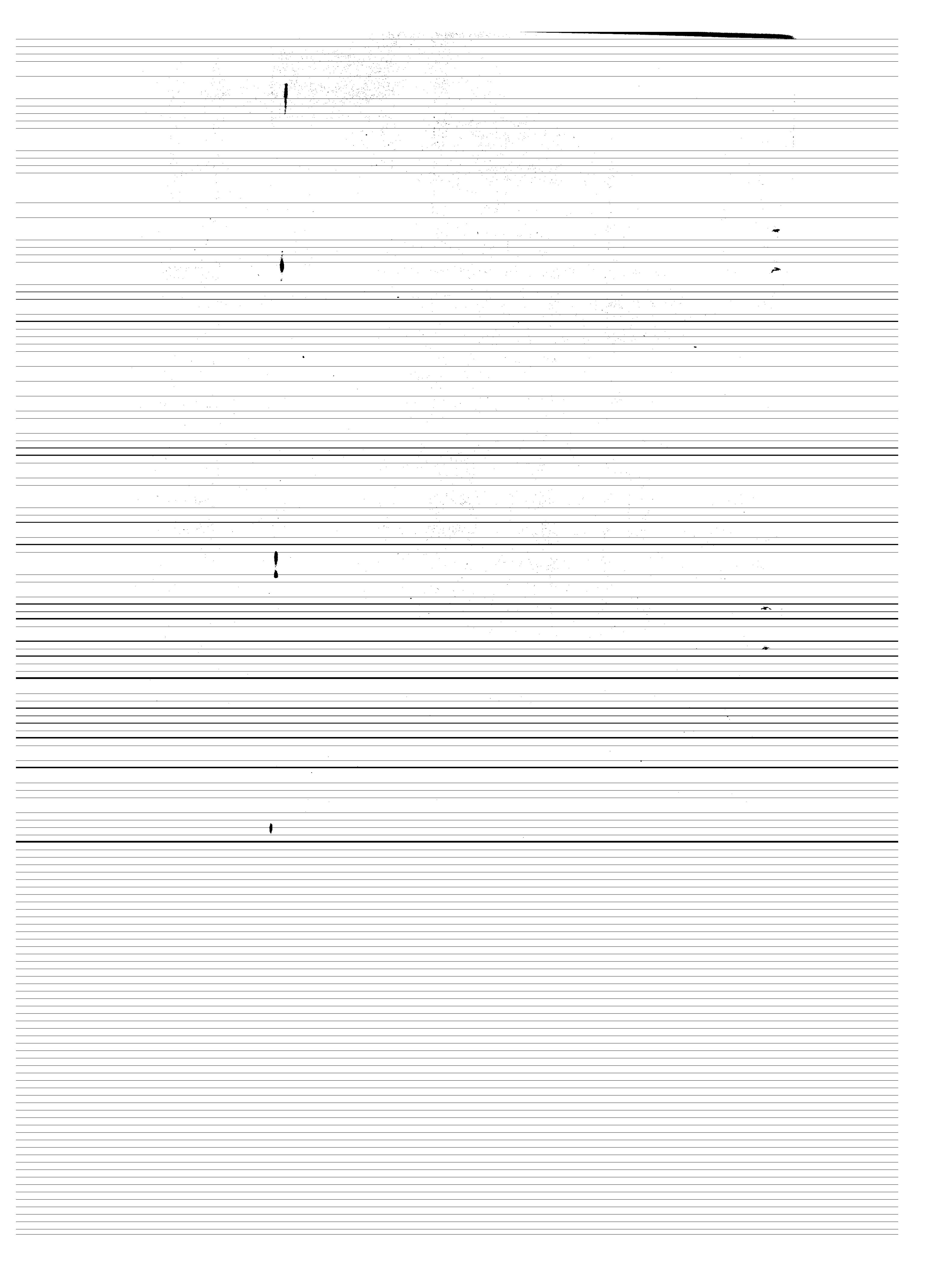
ففـــيما قالـــوه تجاهل للهجرات اليمنية إلي الشمال والعكس ، ثم إن اللغـــات العربية كان بينها تفاعل وتقارب ومن أراد من الشعراء أن يظـــل شـــعره خالداً كان ينظمه بلغة يفهمها من يسمعون أشعاره في أســـواق العرب التي تقام ، وغير هذا وذاك لقد ظهر أثر التغاير في اللغـــة واللهجـــات في قلة من الأشعار ومن ذلك ما ذكر في كلامنا الـــسابق عـــن بعـــض اللهجات عند العرب كالعجعجة ، والكشكشة والعنعنة ..... إلخ .

وضـــح إذن أن في الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلي قبوله ، وفيه موثوق به ، وهو علي درجات ؛ منه ما أجمع عليه الرواة ، ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم ، وقد يغلب المنتحل الموثوق به

ولكـــن ذلـــك لا يخرج بنا عن إبطال الشعر الجاهلي عامة ، وإنما يدفعـــنا إلي بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق .

الفصل الثاني

أنواع الشعر الجاهلي ، واللون السائد فيه



* ألوان الشعر الجاهلي

يقسم النقاد أنواع الشعر في الآداب العالمية منذ عصر الإغريق القدماء إلى أربعة اقتسام :

١- شعر قصصي ٢- شعر تعليمي ٣- شعر غنائي

٤- شعر تمثيلي

١) فالشعر القصصي : هو الذي يتناول فيه الشاعر حدثاً واقعياً أو خيالياً فيصور جوانبه وشخصياته ، ويلتزم فيه الشاعر الحيدة ، فلا يقحم فيه مشاعره وأهواءه ، وما هو حينئذ إلا قاص أو حاك بأسلوبه هو فقط ، فهو إذن يعني قبل كل شيء بتصوير الأحداث الكبرى وسرد مظاهر البطولة .

ويمتاز هذا اللون من الشعر بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تتعقد حول بطل كبير وبعض الأبطال الثانويين من حوله ، والقصيدة في هذا الوضع قصة إلا أنها كتبت شعراً ، يراعى فيها التسلسل القصصي والانتقال المحكم بين أجزائها ويغلب عليها الخيال لذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وتظهر فيها الآلهة وخصوصاً عند الإغريق ومن ذلك :

الإلـــياذة لهوميـــروس " وهـــو إغريقي " ، الإنياذة لفرجيل " وهو رومـــي " والـــشهنامة للفردوســـي " وهو فارسي " وهذا اللون من الشعر لم يعرفه الجاهليون بهذه الكيفية .

٢) والـــشعر التعليمـــي : وهـــو الـــذي ينظم فيه الشاعر طائفة من المعـــارف علـــى نحـــو معـــين مبيـــنا قواعدها وأصولها وأمثلتها وأحكامها ...... الخ

ومـــثال ذلك قصيدة " الأعمال والأيام " للشاعر اليوناني هزيود التي يصور فيها فصول السنة ، والحياة الريفية ، وقصيدة " فن الشعر " للـــشاعر الروماني هوراس التي نظمها في قواعد الشعر ونقده ، ولم تعرف الجاهلية هذا اللون من الشعر أيضاً .

٣) أما الشعر التمثيلي أو المسرحي : فهو شعر قصصي يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص يتخلله مـــشاهد ومناظر مختلفة تتضح من خلالها المواقف وتظهر جوانب القصة .

وكـــذلك لم تعرف الجاهلية ولا الجاهليون هذا اللون من الشعر لأن المسرح يتطلب تجمع واستقرار ، والعرب قبائل رحل لا استقرار لها ولا مجـــتمع ثابت عندهم ، كما أنهم كانوا يستنكفون أن يقلد الرجل شخصية رجل غيره .

٤) لم يبق إلا النوع الرابع والأخير وهو الشعر الغنائي :

وهو الذي يصدر عن النفس لتتغنى به في خلوتها ووحشتها ، وتجد فيه متنفساً لآلامها وآمالها ، فالشاعر يصور في هذا النوع من الشعر عواطفه وخواطره وخلجات نفسه وشعوره الداخلي سواء فيما يتعلق بالطبيعة وما ورائها أو الحب أو الدين أو الوطنية أو كل ما يجيش في النفوس . وهذا النوع هو الذي شاع وانتشر في الشعر الجاهلي .

– ونحن لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهلي جمعيه غنائي ، إذ يماثل الشعر الغنائي الغربي من حيث أنه ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس ، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثى أو حين يعتذر أو يعاتب ، أو حين يصف أي شيء مما ينبت حوله في جزيرته .

وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائي الغربي من حيث أنه كان يغني غناء ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه ، فهم يروون أن المهلهل غنى في قصيدته :

طفلة ما ابنة المحلل بيضا ... ء لعوب لذيذة في العناق

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه [1]

---

[1] العصر الجاهلي / شوقي ضيف صـ١٩٠ .

ومـــن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصفهاني يشير إلى أن شاعراً جاهليا تغنى ببعض شعره مثل السليك بن السلكة ، وعلقمة بن عبدة الفحـــل ، والأعشى وكان يوقع شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم " الصنج " ولعله من أجل ذلك سمي " صناجة العرب " .

ويقول أبو النجم في وصف قينة :

تغنى فـــإن اليـــوم يوم مـــن الصبـــا

ببعض الذي غنى امرؤ القيس أو عمرو

ويقول حسان :

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

فالغـــناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عنه بالإنشاد ، ومنه الحداء الذي كانوا يحدون به في أسفارهم وراء إبلهم وكان غناء شعبيا عاماً .

ويقتـــرن هـــذا الـــشعر المغني عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمزهر والدف والصنج .

وكانت نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقة التي تقف وتردد خلف المغني الآن ويتغنـــين فـــي حفلاتهـــم لاعبات على المزاهر ، ففي الطبري والأغانـــي أن هنداً بنت عتبة ، ونسوة من قريش كن يضربن على الدفـــوف في غزوة أحد وكانت هند تغني في تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها :

إن تقلبوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

- ومعنى كل ما سبق أن الشعر في الجاهلية كان يصحب بالغناء والموسيقى فهو شعر غنائي تام ، نظم في جو غنائي مشبه لنفس الجو الذي نظم فيه اليونان شعرهم الغنائي .

- ونحـــن إذا رجعـــنا إلى هذا الشعر الجاهلي وجدنا بقايا الغناء والموســـيقى ظاهـــرة بينة ، ولعل القافية هي أهم هذه البقايا التي احـــتفظ بها ، وقبلها التصريع في مطالع القصائد ، وما كان يعمد إلـــيه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتي لأبياتهم على شاكلة قول امرئ القيس :

مكــر مفــر مقبــل مدبــر معــا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقول لبيد في مستهل معلقته :

عفت الديار محلها فمقامهــا

بمنـــي تأبـــد غـــولها فرجامهـــا

ولا نـــشك في أن صور الأوزان المتنوعة التي يمتاز بها الشعر الجاهلي إنما حدثت بتأثير هذا الغناء .

الخلاصة : أن الشعر الجاهلي لم يعرف الأنواع الثالثة الأولي من الشعر ، وهي الشعر القصصي والشعر التعليمي والشعر التمثيلي

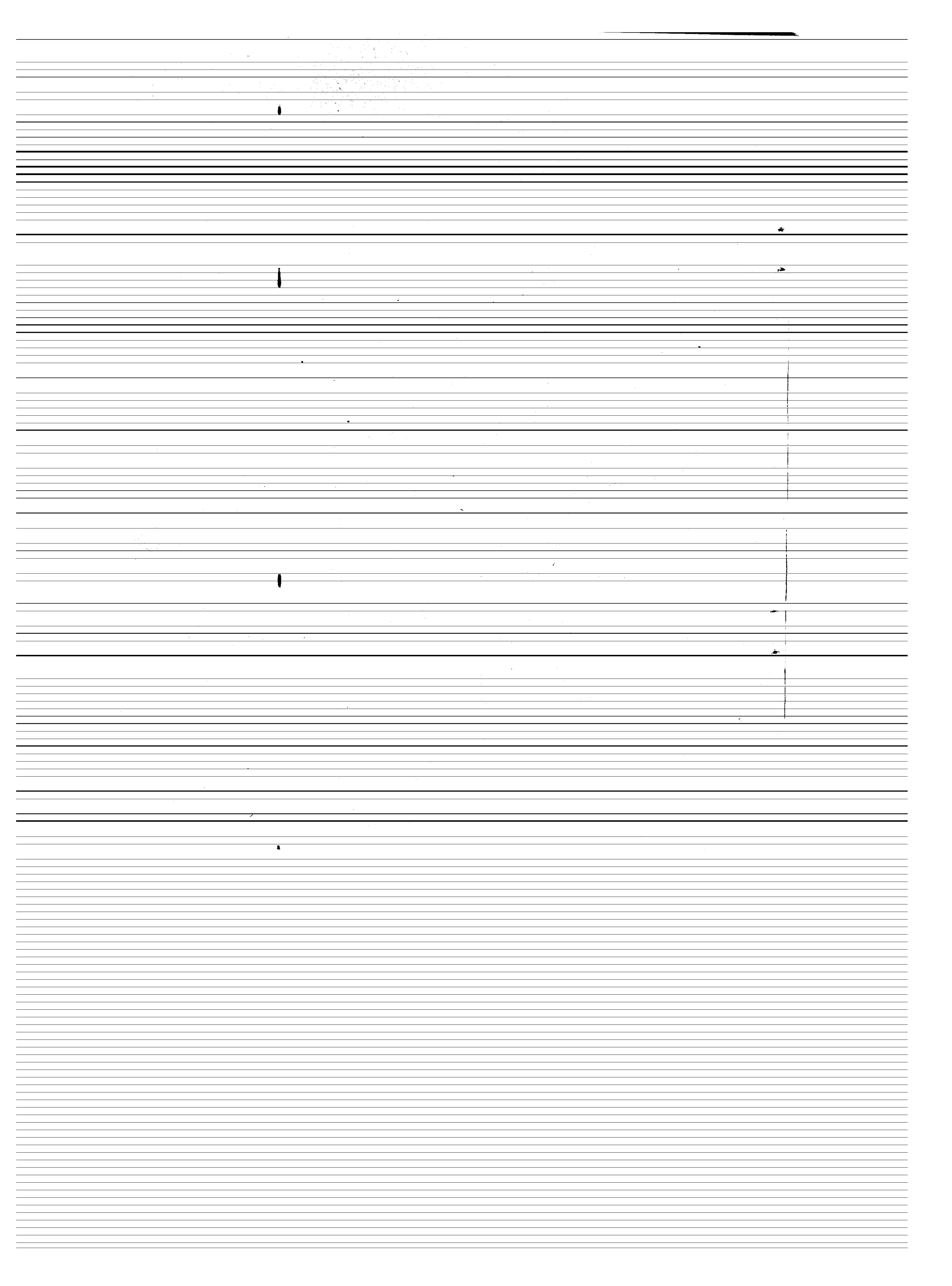
وإن وجد فيه بعض الشعر القصصي الذي يصور بعض جوانب الحـــياة الاجتماعـــية والعاطفـــية ويصفها إلا أنه لم يكن يصف أحـــداثاً عظامـــاً ولا يذكـــر آلهـــة ولا يستوحيها أو يستلهما في بطولات علي نحو ما كان عند الإغريق لذا كان القصص العربي في الشعر الجاهلي يناسب البيئة العربية ويخالف الملاحم الطويلة المعـــروفة لـــذلك قلـــنا أن الـــشعر القصصي غير موجود عند الجاهليين .

– ولعـــل هـــذه الأنـــواع الثلاثة لم توجد في الشعر الجاهلي لأن شـــعرهم مـــنظومات قصيرة قلماً تتجاوز مائة بيت ، كذلك فإن الـــشعر الجاهلي شعر ذاتي يمثل صاحبه وأهواءه ، علي حين أن الـــضروب الثلاثة الأولي جميعاً تستدعي الموضوعية لا الذاتية ، فالـــشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه إنما يتحدث عن أشـــياء خارجـــة عنه ، سواء حين يقص أو حين يعلم ، أو حين يمـــثل ، فهو في كل ذلك يغفل نفسه ولا يقف عندها ، إنما يقف عـــند جانـــب قصصي تاريخي يحكيه أو علمي تهذيبي يرويه أو تمثيلـــي مـــسرحي يـــؤديه متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

الفصل الثالث

خصائص الشعر الجاهلي

- في الألفاظ والأساليب
- في المعاني والأخيلة
- في الأغراض الشعرية
- منهج القصيدة الجاهلية



خصائص الشعر الجاهلي

أولاً : في الألفاظ والأساليب :

مـــن أهـــم مـــا يلاحـــظ علي الشعر الجاهلي من الناحية اللفظية والأسلوبية من خصائص :

١- إحكام الصياغة ، وتمام التراكيب وضبطها ضبطاً دقيقاً بحيث لا يكون فيها قصور ولا عجز في تأدية معانيها ومدلولاتها .

٢- الفـــصاحة والـــسلامة والبعد عن اللحن والركاكة والضعف بأنواعه .

٣- الاســـتعانة بطائفة من المحسنات البلاغية اللفظية والمعنوية بغـــرض التأثيـــر في من سامعيهم ومن هذه المحسنات : التشبيه الاستعارة بفرعيها ، الجناس ، الطباق ..... إلخ

٤- قـــوة الألفاظ وسلامة الأسلوب من التكلف والصنعة والقصد إلي التعبير الحقيقي ، والخيال الطريف .

ثانياً : في المعاني والأخلية .

١- القـــرب والوضـــوح والبساطة ، والبعد عن التكلف والتعمق والإغـــراق فـــي الخيال والبعد كذلك عن المبالغة التي قد تخرج بالمعني عند الحدود المعتدلة .

٢- الصدق في التعبير ، ونقل الأشياء المحيطة نقلاً أميناً يبقي علي حقيقتها وعدم الجنوح بالخيال بما يخرج الشيئ ويحيله عن حقيقته ، فتري الشاعر في الجاهلية يعترف بهزيمة قومه إن هزموا ، وبإدباره إن أدبر ، فالشعراء الجاهليون لا يبدلون الحقائق غالباً .

٣- الدقة في تصوير البيئة وما فيها تصويراً أميناً بعيداً عن المبالغة والمغالاة حتي أصبح شعر الجاهليين وبثقة قيمة تعكس ما كان في البيئة الجاهلية .

٤- الخيال عند البدوي إنما يأتي لتوضيح المعاني وكشفها وتجسيمها وتشخيصها ، وهذه النزعة جعلت الجاهلي بعيداً عن العمق والتحليل تري ذلك في تشبيهاته للمرأة والسيف والرمح والطبيعة .

٥- اعتمد الجاهلي في خيالاته علي البيئة ، ووحدة المصدر جعلتهم لا يتسعون في المعاني بل عم التشابه وظهر التقارب بينهم .

٦- طول القصيدة الجاهلية جعلها تلم بمواضيع وأغراض كثيرة قد لا يكون بينها ترابط عضوي ، فالحرية والتنقل والفضاء الواسع وما يجمع من أمور لا رابط بينها ، كل ذلك كان له أثره في عدم ترتيب الأفكار ، وقد كان الشاعر ينتقل من معني إلي معني آخر من غير تمهيد حتي أصبحت القصيدة العربية في العصر الجاهلي مجموعة من الأغراض

ثالثاً : أغراض الشعر الجاهلي

الـــشعر ديوان العرب ، وأعلي مراتب الأدب ، وأمهات دواعيه أربـــع هـــي : الرغبة والرهبة والطرب والغضب ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق والنسيب " الغزل " ومع الغضب يكون الهجاء والعتاب الموجع .

– وقـــال قـــوم الشعر نوعان : مدح وهجاء ، فمع المدح يكون الـــرثاء والفخر والتشبيب ، وما يتعلق بذلك من محمود الوصف وممـــدوح الـــنعت وحسن التشبيه ، وكذلك ما فيه تربية الأخلاق كالأمثال والحكم والترغيب في القناعة والزهد في الدنيا .

ومـــع الهجاء يكون ضد ذلك كله ، ويأتي العتاب طرف لكل من النوعـــين فالمـــادح المحـــب يعاتب والذام الكاره المبغض يعاتب أيضاً .

– وقـــد تنوعت فنون الشعر الجاهلي تبعاً لتنوع المشاعر و تغير العواطـــف من حب ، وبعض وخوف وإعجاب وحزن ولذا ظهر مـــن الفنون (الأغراض الشعرية) الغزل ، والفخر ، والمدح ، والرثاء ، والهجاء ، والوعيد ، والإنذار ، والاعتذار ، والوصف والخمريات ، والحكمة ...... وسواها من الأغراض .

– وكان الشاعر العربي يتوخي المقام المناسب ليسوق فيه شعره منتقـياً لــذلك القافــية الملائمة ، والأفكار والمعاني والأخيلة ، والألفــاظ والأساليب التي تتناسب مع ما يسوق من شعر يناسب المقام .

وفيما يلي عرض لتلك الأغراض :

(١) المـدح

هــو ذكر محاسن المرء وصنائعه ، ويجعل منها في المقام الأول مـــا يهتم به البدوي من مآثر كالكرم والشجاعة والمروءة والعفة ... ألـــخ ، وكان الشاعر لا يمدح إلا مرتبطاً بالقبيلة ، فهو يمدح ما تري القبيلة مدحه ممن قدم لها معروفاً أو مساعدة أو غير ذلك مما يستدعي المدح .

قال ابن رشيق القيرواني (وسبيل الشاعر إذا مدح ملكاً أن يسلك طــريق الإيــضاح والإشادة بذكره للممدوح ، وأن يجعل معانيه جــزلة ، وألفاظـــه نقية غير مبتذلة سوقية ، ويجتنب – مع ذلك التقــصير والــتجاوز والتطويل فإن للملك سآمة وضجراً ، ربما عاب من أجلها ما لا يعاب ، وحرم من لا يريد حرمانه) [١]

– وأفضل ما يكون المدح إذا كان عن عاطفة صادقة دون تملق أو نفـــاق ، لـــذا عد زهير بن أبي سلمي أصدق من مدح من

---

[١] العمدة جـــ ٢ صـــ ١٢٨ ط الخامسة دار الجيل سنة ١٩٨١ .

الـــشعراء الجاهليـــين لأنه لم يتكسب بشعره ولم يتخذ مدحه سبيلاً للنوال والمنح ، بل كانت مدائحه إعجاباً بصفات نادرة وتزكية لفضائل بارزة ، وصياغة لحكم سائرة فأجاد في شعره وأفـــاد في حكمه وأخلص في مدحه فأعجب النقاد والبلاغيون بطريقته .

– ومن المدح قول زهير يمدح هرم بن سنان :[١]

وأبيض فياض يداه غمامـــة — علي معتفيه ما تغـب نـــوافلـــه [٢]

بكرت عليه غدوة فوجدتـــه — قعوداً لديه بالصريـــم عواذلـــه[٣]

يفدينه طـــوراً وطوراً يلمنـــه — وأعيا فما يدرين أيـــن مخاتلـــه

فأعرضن عنه عن كريم مرزأ — عزوم علي الأمر الذي هو فاعله[٤]

أخي ثقة لا يتلف الخمر ماله — ولكن قـــد يهلـــك المـــال نائلـــه

تراه إذا مـــا جئتـــه متهلـــلاً — كأنك تعطيه الـــذي أنـــت سائلـــه

وذي نسب ناء بعيد وصلتـــه — بمال ولا يـــدري بأنـــك واصلـــه

فالـــشاعر انتقـــي معانيه بدقة ، وحرص علي إعلاء سجايا ممدوحه حتـــي جعله من شدة كرمه وجوده كأنك تعطيه ما تسأله ، فالممدوح يعطي ولا يمن ، ولا يتظاهر بالعطاء طلباً للشهرة أو التملق ، وهذه

---

[١] ديوان زهير صـــ ١٤١ – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٤٤ .

[٢] تغب : تنقطع

[٣] الصريم : الصبح أو هو جمع صريمة وهي رملة تنقطع من معظم الرمل .

[٤] مرزأ : مصاب في ماله

الصورة قد لا توجد إلا في القليل النادر من الناس ، فمنتهي الكرم ومبلغ الجود أن تحس بسرور ورضا العاطي حين تسأله فيعطيك .

– وكثيراً ما تغني الشعراء بكريم الشيم ، وكل ما اتخذوه مثلاً رفيعاً لهم في حياتهم وسلوكهم من كرم ووفاء وغيرهما من الفضائل الحميدة علي شاكلة قول ربيعة بن مقروم :

وإن تسأليني فإني امرؤ ... أهين اللئيم وأحبو الكريما

وأبني المعالي بالمكرمات ... وأرضي الخليل وأروي النديما

ويحمد بذلي له معتف ... إذا ذم من يعتفيه اللئيما[1]

وأجزي القروض وفاءً بها ... ببؤس بيئسي ونعمي نعيماً[2]

وقومي فإن أنت كذبتني ... بقولي فاسئل بقومي عليما

يهينون في الحق أموالهم ... إذا اللزبات انتحين المسيما [3]

طوال الرماح غداة الصباح ... ذوو نجدة يمنعون الحريما

– ولا نصل إلي أواخر العصر الجاهلي حتي يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلي الكسب ، فهم يقدمون به علي السادة المبرزين وملوك المناذرة والغاسنة يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة ، وأخذوا في أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتي تحقق لهم

---

[1] المعتفي : السائل في غير طلب

[2] البؤس والبئيس : بمعني واحد والمعني أنه يجزي السيئة بمثلها وكذلك الحسنة

[3] اللزبات : الشدائد ، المسيم : الكثير من الأبل والغنم وهي مشتقة من السائلة

ما يريدون من التأثير في ممدوحيهم ، واشتهر بذلك زهير والنابغة وحسان بن ثابت .

- ولـــم يلبث هذا الفن أن أصبح حرفة خالصة للتكسب بوصوله إلي الأعـــشي ، فلـــم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلا قصده ومدحه وفخم شأنه معرضاً بالسؤال .

(٢) الفخر والحماسة

الافـــتخار هو المديح نفسه إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه ، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار[١] ، وكل ما قبح فيه قبح فـــي الافـــتخار غير أن الفخر في الجاهلية كان شديد الصلة بالبيئة الجاهلـــية ، فقـــد كان العربي يفتخر بقوته وظلمه وكثرة عدد أفراد قبيلـــته وســـلاحه واســـتعباده للغيـــر ، وعـــن الفخـــر والحماســـة يقول د / شوقي ضيف :

(ولا نـــبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم ، فقد ســـعرتهم الحـــروب ، وأمـــدها شـــعراؤهم بوقود جزل من التغني ببطولـــتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يترامون عليه تحت ظلال الـــسيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها ، ويرتفع هذا الغـــناء بل قل هذا الصياح في كل مكان بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هـــناك صوت سواه .... واقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجد هـــذا الفخر وما يطوي فيه من حماسة يدور علي كل لسان ، وستجد الشاعر فيه يتحدث دائماً عما تعتز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضييق الخناق علي أعدائها ، وهو يعدد أيامها مشيداً بحسبها ونسبها وصـــبرها في الملمات وكرمها في الجدب وحمايتها للجار وإغاثتها للملهوف . [٢]

---

(١) العمدة جـــ٢ صـــ ١١٤ – ١١٥ .

(٢) العصر الجاهلي صـــ ٢٠٢ .

ومن أمثلة شعر الحماسة قول المرقش الأكبر[١]

إن تبتدر غاية يوماً لمكرمـــة　　　تلق السوابق منا والمصليـــنا

وليس يهلك منا سيـــد أبـــداً　　　إلا افتلينا غلامـــاً سيـــداً فينا

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا　　　ولو نسام بها في الأمن أغلينا

شعث مقادمنا تغلي مراجلـــنا　　　نأسوا بأموالنـــا آثـــار أيدينـــا

إني لمن معشر أفني أوائلهم　　　قيل الكماة ألا أين المحامونـــا

إذا الكمـــاه تنحوا أن يصيبهم　　　من فارس ؟ خالهم إياه يعنونا

ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم　　　مع البكاة علي من مات يبكونا

– ومـــن روائعهـــم فـــي هـــذا الـــباب معلقة عمرو بن كلثوم التي يقول فيها :

متي ننقل إلي قوم رحانـــا　　　يكونوا في اللقاء لها طحينـــا

نطاعن ما تراخي الناس عنا　　　ونضرب بالسيوف إذا غشينا

بسمر من قنا الخطي لـــدن　　　ذوابـــل أو ببيـــض يعتلينـــا

نشق بها رؤوس القوم شقاً　　　ونخليها الرقـــاب فتختلينـــا

كأن جماجم الأبطـــال فيهـــا　　　وسوق بالأماعـــز يرتمينـــا (٢)

ورثنا المجد قد علمت معـــد　　　نطاعن دونه حتـــي يبينـــا

---

(١) شاعر جاهلي اسمه : عوف بن سعد وهو عم المرقش الأصغر واسمه عمرو بن حرملة .

(٢) الأماعز : الأراضي الصلبة ، الوسوق جمع وسق وهو الحمل

ونحن إذا عماد الحي خرت على الأخفاض نمنع من يلينا

نجذ رؤسهم في غير وتر فما يدرون مـــاذا يتقـــونـــا

– والمعلقة جميعها صياح شديد علي هذا النحو الذي رفع فيه قبيلته تغلب علي كل من حولها في نجد شرقيها وغربيها . فكل من حدثته نفسه بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار .

– وقـــد يتوجه الشاعر بالفخر إلي نفسه ليبين مدي شجاعته ومنزلته في القبيلة وحاجة القبيلة إليه ليحميها ، ويبث الهيبة في نفوس أقرانه وذلك مثل قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنهـــا أشطان بئر في لبان الأدهـــم

ولقد شفي نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

– ويتـــضح من شعر الفخر في البيئة الجاهلية أن العربي كان يحب الظهـــور ، والتفوق علي غيره والإعجاب الشديد بنفسه حتي استولي ذلك علي نفوس الشعراء وسيطر عليهم إلي حد كبير .

(٣) الرثـــــاء

من أهم الموضوعات التي أطيلت فيها القصائد الجاهلية ، والقصيدة في هذا الموضوع تسمي مرثية ، وفي الشعر الجاهلي مراث تعد من أجمــل وأفخم ما في الأدب العربي ويروي الرواة أن بعض العرب سئلوا : ما بال أفضل أشعاركم الرثاء ؟ فأجابوا : لأننا نقولها وقلوبنا مــوجعة ، أي لأنها صادرة عن عاطفة حارة خالية من كل تكلف .

والــرثاء هو بكاء الميت وإظهار الحزن واللوعة لفقده ، وذلك بتعداد مناقــبه وإظهــار مآثرة والإشادة بما كان له من خلال كريمة ، وما تــركه من فراغ لا يشغل بعد هذا الفقد ، وقد يؤثر الجو النفسي في الشاعر فيخرج من الإطار المتقدم كأن يكون الميت قتيلا ، وما أكثر ذلــك فــي الجاهلــية فيخرج الرثاء إلي التحمس والإثارة والتهديد والوعــيد ، وقــد يقــوم الــرثاء علــي الــندب والتأبــين والعزاء وتعداد المآثر .

– وكانــت النــساء تشارك الرجال في هذا الندب ، فقد كن ما يزلن ينحن علي القتيل حتي تثأر له القبيلة ، ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من (التعديد) كما نسميه الآن ، فما تزال امرأة تنوح ويرد علــيها صــواحبها ، وقد حدثنا الرواة أن الخنساء كانت تخرج إلي عكاظ فتندب أخويها صخراً ومعاوية وكانت هند بنت عتبة أم معاوية ابــن أبي سفيان تحكيها (تقلدها) نائحة أباها . وكن يشققن جيوبهن

علـــي القتيل أو الميت ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه مأتما من العويل والبكاء .

– وخيـــر مـــثال علي ذلك هو : الخنساء فقد قتل أخوها معاوية في بعـــض المعارك ، فارتفع نحيبها وبكاؤها عليه ، وقتل أيضا أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة .

– ومن روائع ما ندبت به أخاها صخرا :

أعيني جـــودا ولا تجمـــدا	**ألا تبكيان لصخـــر النـــدي**
ألا تبكيان الجريء الجميل	**ألا تبكيـــان الفتـــي السيدا**
طويل النجاد رفيع العمـــاد	**ســـاد عشيـــرتـــه أمـــردا**
إذا القوم مـــدوا بأيديهـــم	**إلي المجد مد إليـــه يـــدا**
فنال الذي فـــوق أيديهـــم	**من المجد ثم مضي مصعدا**

وعن هذا الغرض يقول ابن رشيق : (وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل علي أن المقصود به ميت مثل : كان أو عـــد مناقـــبه ، أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت .... وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام)[1]

– ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحس داعي الموت نـــدب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من ترجيل شعره

---

[1] العمدة جـــ٢ صـــ١١٧–١١٨

ووضـــعه فـــي مدارج الكفن ثم لحده ودفنه ومن ذلك قول الشاعر الجاهلي [١] :

هل للفتي من بنات الدهر من واق   أم هل من حمام الموت من راق

قد رجلوني وما رجلت من شعث   وألبسوني ثياباً غيــر أخـــلاق

وأرسلوا فتية من خيرهــم حسبا   ليسندوا في ضريح الترب أطباقي

– وكـــان الـــشعراء حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه حـــوض لابد من وروده وقد سبقتهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك .

علي هذا النحو ألم الشعراء الجاهليون بجوانب الرثاء من ندب وتأبين وعزاء ، وكان رثاؤهم غالبا يتعلق بأفراد لا بمجموعات .

---

[١] الأبيات تنسب للممزق العبدي أو ليزيد بن الحذاق

(٤) الغـــزل

وهو إلف النساء والميل إلي ما يوافقهن ، ووصف محاسنهن الخلقية ومفاتـــنهن الجمالـــية ، واجتـــرار ما مضي من ذكريات قامت بين الـــشاعر والمرأة من وصل وهجران وعطاء وحرمان والتعبير عن كل ما يعتمل في نفس العاشق من بتاريح الهوي والحب .

- والغـــزل والنـــسيب والتـــشبيب بمعني واحد والأصل فيهم جميعا ترقيق الشعر بذكر المرأة واستعادة ذكريات العشق والوله .

قـــال ابن رشيق في باب النسيب : (أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعاني سهلها ، غير كز ولا غامض وأن يختار له من الكلام مـــا كـــان ظاهـــر المعني لين الإيثار شفاف الجوهر يطرب الحزين ويستخف الرصين) [١]

- وأول صـــورة للغزل تقابلنا في الشعر الجاهلي هي (بكاء الديار القديمة) أو بكاء الأطلال وهي الديار التي رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولي ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع .

وقـــد كانـــت الأعـــراف الموجودة في البيئة الجاهلية لها أثرها في مسايرة هذا الغرض ، فاحترام الأعراض والحفاظ علي الشرف جعل مـــن يتغـــزل منهم يبتعد في غزله عن الفحش ويدنو من العفاف إلا القلـــة من الشعراء الذين نراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ،

---

[١] العمدة جـ٢ صـ٩٣ .

ولا يكادون يتركون شيئا فيها دون وصف له كالخد والجبين والعنق والصدر والعين والفم والريق والمعصم والشعر .... الخ كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحيائها وعفتها .

<u>من هنا يتضح أن الغزل الجاهلي دار بين أنواع ثلاثة :</u>

<u>(أ) بكاء الأطلال :</u> وهو مقدمة غزلية كانت تبدأ بها القصيدة الجاهلية ويستهلها الشاعر بذكر المحبوبة وديارها وأيام شبابه معها واتخذ الشعراء تلك العادة في أغلب قصائدهم إن لم يكن كلها حتي سمي فيما بعد " بالغزل الصناعي " ، وذلك لعلم الشاعر العربي أن الحديث عن النساء يستهوي الأسماع ويستمل الآذان قبل القلوب فكان يبدأ قصيدته بتلك المقدمة الغزلية الطليلة ثم يدلف منها إلي غرضه الأساسي .

<u>(ب) غزل عفيف :</u> وهو ذكر العواطف المنفعلة التي ألهبت مشاعر الحنين في نفس الشاعر الجاهلي ، والتعرض للمرأة بالوصف دون التجريح أو التصريح بما يتنافي مع صون الأعراض وحفظها .

ووجدنا الشعراء في ذلك كثيرا ما يقفون طويلاً يصورون حبهم للمرأة وما يذرفون من دموع وذلك علي شاكلة قول الشاعر :

فظللت من فرط الصبابة والهوي طرفاً فؤادك مثل فعل الأيهم [1]

---

(1) طرفاً : ينظر هنا وهناك بلا اسقرار . والأيهم : المجنون

(ج) الغزل الفاحش : وهو وصف كل مفاتن المرأة دون حرج أو عفة أو حشمة وربما رجع ذلك إلي أنهم كانوا وثنيين ولم يكن هناك دين يردعهم أو يحرم عليهم ذلك ، فنراهم يتعرضون لبعض مغامراتهم مع النساء وهي مغامرات تحول بها بعض الرواة إلي قصص غرامية .

ومما يميز هذا النوع من الغزل أن أساسه المتعة بالمرأة وعدم الوقوف عند حبيبة واحدة يكون وفياً لها بل يتحول من هذه إلي تلك واصفاً مستبيحاً غير محتشم ، ومن شعراء هذا اللون امرؤ القيس ، والمنخل اليشكري ، والمنقب العبدي – والمرقشان الأصغر والأكبر وطرفة بن العبد.

– وكان لشعراء الجاهلية أسماء تحلو في أفواههم كسلمي وليلي وهند وزينب وسعاد .... الخ

ومن شعر الغزل قول المنخل اليشكري :

ولقد دخلت علي الفتا	**ة الخدر في اليوم المطير**
الكاعب الحسناء تر	**فل في الدمقس وفي الحرير**
فدفعتها فتدافعت	**مشي القطاة إلي الغدير**
ولثمتها فتنفست	**كتنفس الظبي البهير** [١]

---

[١] البهير : النهج وتتابع الأنفاس من شدة السعى والجري

فدنت وقالـــت يا منـــــــــ   خل ما بجسمك من حرور

ما شف جسمي غير حبـــــ   ك فاهدئي عني وسيـــري

– ومن قول المرقش الأكبر :

قل لأسماء أنجزي الميعـــادا   وانظري أن تزودي منك زادا

أينما كنت أو حللت بـــأرض   أو بلاد أحييت تلـــك البـــلاد

إن تكوني تركت ربعك بالشام   وجـــاوزت حميـــراً ومـــرادا

فأرتجي أن أكون منك قريباً   فاسألي الصادرين والورادا

– هذا ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم ، بل كانت فـــي المكـــان المـــصون وكان الشاعر يستلهمها شعره ، ولذلك كان يضعها في صدر " مقدمة " قصيدته وشعره ونحس عند كثيرين منهم وخاصـــة فرسانهم من مثل عنترة أنهم يقدمون مغامراتهم في الكرم وفي الحرب لها لينالوا حبها .

(٥) الهجاء

وهو ذكر مثالب المرء وإظهار معايبه قذفاً بالشعر ، وأشد الهجاء ما كان فيه التفصيل ، وأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتجاهل ، وتوسط بين التعريض والتصريح ، وقربت معانيه وسهل حفظه وأسرع تعلقه بالقلب .

وكان اللسان – وما يزال – يفعل بالأعداء فعل السيوف والرماح وقد أدرك الشاعر الجاهلي ذلك فاتخذ من لسانه سلاحاً يقاتل به مع الفرسان والشجعان ونصب من هجائه سهاماً جعل يرمي بها أعداءه من الأشراف والقبائل .

– وكان الشعراء ينتهزون فرصة تلاقيهم في الأسواق وخاصة سوق عكاظ فينشدون أهاجيهم لتذيع ، وليلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزي وعار .

– وكان الهجاء الجاهلي يدور علي كل ما يناقض مثلهم التي جمعت في كلمة " المرؤة " وهي تعني – كما سبق – فضائل كثيرة منها الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما هي إلا أن يدخل الشاعر في الهجاء ، فإذا هو يخلص القبيلة وأشرافها من كل هذا الفضائل وما يتصل بها ، فهي لا تكرم الجار ولا تحميه ، وهي تفر في الحروب وتقعد عن الأخذ بثأرها . ولم يقف الشعراء الهجاءون عند ذلك بل كانوا يقذفون في الأعراض ويطعنون في الأنساب متعرضين للأمهات وللزوجات بالإمعان في

الفحش ، وكثيرا ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعي في قومه زنيم ، وشاع بينهم هذا الضرب من الوقوع في الأعراض .

– وأغلب الهجاء الجاهلي لم تفرد له قصائد خاصة ، بل كان الشعراء يسوقونه غالباً في وسط وتضاعيف حماستهم وإشادتهم بأمجادهم وانتصاراتهم الحربية .

– ومن أمثلة الهجاء قول الشاعر يهجو النعمان بن المنذر

نعمان إنك خائن خدع يخفي ضميرك غير ما تبدي

وقول الأخر أيضا يهجو النعمان وينسبه إلي غير أبيه :

لعن الله ثم ثني بلعن ابن ذا الصائغ الظلوم الجهولا

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدو قتيلا

ومن أشهر الشعراء الهجائين في الجاهلية ، الحطيئة ، وحسان بن ثابت وعبد الله بن الزبعري .

ومن أشد الهجاء عندهم قول زهير يهجو آل حصن متجاهلا عليهم

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

فإن تكن النساء مخبآت فحق لكل محصنة هداء

(٦) الاعتـــذار

وهو الاحتجاج للنفس فيما فعلت ، وإقامة الحجة والأدلة مع التطلف فـــي التضرع والدخول تحت العفو ، وعلي الشاعر أن يكون حكيماً يعرف كيف يأخذ بقلب ولب من يعتذر إليه ، ويلين جانبه ويستجلب رضاه .

– وفـــن الاعـــتذار نـــشأ نشوءاً من المديح وفي ظلاله ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء .

– ومممـــا يـــنحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينـــشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذي الأقارب ، وقد كـــان عتابهم واعتذارهم قليل إذا قيس بأي فن آخر من فنون الشعر التي راجت عندهم .

ومن أشهر شعراء هذا الفن النابغة الذبياني ، ومن قصائده التي يمدح فيها النعمان بن المنذر ويعتذر إليه قوله :

أتاني – أبيت اللعن– أنك لمتني	وتلك التي اهتم منها وانصـــب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبـــــة	وليس وراء الله للمرء مذهـــب
لئن كنت قد بلغت عني خيانـــة	بلاغك الواشي أغش وأكـــــذب
ولكنني كنت امرأ لي جـــــانب	من الأرض فيه مستراد ومذهب
....	....
فلا تتركني بالوعيد كـــأننـــــي	إلي الناس مطلي به القار أجرب

(٧) الوصـــف

وهو تطابق التعبير مع الإدراك ، وهو باب جامع مع أبواب الشعر، فالمديح وصف محاسن الناس ، والهجاء وصف مساوئهم ، والنسيب وصف جمال المرأة وما يثيره في النفس من عاطفة وهلم جرا .

- ومن النقاد من قال : إن الشعر كله وصف ، وهو كلام جائر لأن هـــذا التعمـــيم لا ينفعنا بشئ إذا كنا نريد البحث عن الأغراض التي يرمي إليها الشعراء في نظم أشعارهم والموضوعات التي تناولوها ، فممـــا لا شـــك فيه أن هنالك أشعاراً قصد بها الوصف لذاته ، وهي مستقلة تماماً عن سائراً أبواب الشعر الأخري .

- والأشياء التي تناولها الشعراء بالوصف تنقسم إلي قسمين :

* ***الظواهر الطبيعية التي ليس للإنسان يد في إيجادها .***
* ***والأشياء التي هي من صنع الإنسان .***

- وقد كان للظواهر الطبيعية المكان الأول في الوصف عند شعراء الجاهلـــية ، ولم يكن من المعقول أن يكثروا من وصف أشياء شديدة الارتباط بالحضارة ، وهم بعد في عهد البداوة أو قريبون منه .

وأكثر ما تجده في أشعارهم من وصف الأشياء المصنوعة ما نظموه فـــي وصف أدوات القتال كالسيف والرمح والدرع والقسي والسهام وما شاكل ذلك .

– أما الظاهرات الطبيعية التي أكثروا من وصفها فهي بالطبع مما يتفق والبيئة التي عاشوا في ظلها ، أي بيئة الجزيرة العربية ، وهذه الظاهرات تنقسم هي أيضاً إلي قسمين :

الأول : *نستطيع أن نسميه الطبيعة الساكنة أو الهامدة كالصحراء والجبال والرمال والسماء وما يجري هذا المجري .*

أما **الثاني :** *فيشتمل علي الكائنات الحية المتحركة وهي ما اشتملت عليه بيئتهم من دواب وحشية أو مستأنسة صغرت أو كبرت كالإبل والخيل والحمر الوحشية والنعام والغزلان ...... الخ*

– وليس من شك في أن الطبيعة الحية المتحركة لها المكان الأول في الشعر الجاهلي وللإبل المكان الأول في الوصف كله ، فشعراء ذلك العهد كانوا يتوخون الإيجاز إذا وصفوا الصحراء أو الريح أو الليل أو القيظ كقول الشاعر في الليل :

فيالك من ليل كأن نجومه   بكل خيوط الفتل شدت بيذبل

كأن الثريا علقت في مصامها   بأمراس كتان إلي صم جندل

– ولكنهم كانوا يسهبون ويطنبون إذا وصفوا الناقة أو الفرس علي نحو ما هو معروف عن طرفة بن العبد في وصفه لناقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضوا ولا جزءاً دون وصف وتصوير .

ولامرئ القيس قطعة بديعة في معلقته يصف فيها فرسه الذي اتخذه للصيد وفيها يقول :

له أيطلا ظبي وساقا نعامـــة وإرخاء سرحان وتقريب تتقـل[١]

ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

كأن سراته لدي البيت قائمـــا مداك عروس أو صلابة حنظـــل

وتلك القطعة هي التي بدأها بقوله عن فرسه أيضا :

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيـد الأوابـد هيكــــل

مكر مفر مقبل مدبـــر معـــا كجلمود صخر حطه السيل من عل

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفـواء بالمتنــــزل

ومن الذين أجادوا في وصف فرسه أيضا عنترة إذ يقول :

هلا سالتي الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمــي

إذ لا أزال علي رحالة سابـــح نهد تعاوره الكمـــاة مكلـــم

طوراً يجرد للطعان وتــــارة يأوي إلي حصد القصي عرمرم

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشي الوغي وأعف عند المغنم

نلمح من الأبيات السابقة سواء لامرئ القيس أو عنترة أنهما من شدة وصـــفها لحـــصانيهما أنك في حضرة تمثالين منحوتين بدقة لهذين الفرسين وذلك من روعة التشكيل والتكوين التي ألح عليها كل شاعر في وصف فرسه .

[١] أيطلا الظبي : خاصرتاه ، وإرخاء سرحان : سير الذئب ، تقريب تتفل : أي قفز ووثب الثعلب .

(٨) الحكمـــة

وهـــي ثبر غور الأشياء ومعرفتها والنظر إليها نظرة صحيحة عن طـــريق التجـــربة والخبـــرة ، والغرض من هذه الحكمة وهدفها هو النـــصيحة والموعظة ، فالشاعر ما يزال يدلي في تضاعيف قصيدته بـــتجاربه ، وقد يفرد لها مقطوعات ، إذا اتجه إلي تقديم وصية لبنيه علـــي نحو ما صنع عمرو بن الأهتم في وصيته لابنه التي يستهلها بقوله :

وإن المجـــد أولــــه وعـــور ومصـــدر غبــــه كـــرم وخيـــر

وممـــن كثرت الحكمة في شعرهم زهير والأفوه الأودي وعلقمة بن عبده ومن شعر الأخير في الحكمة :

الحمد لا يشتري إلا لـه ثمـــن مما يضن به الأقوام معلوم

والجود نافية للمال مهلكـــــة والبخل باق لأهليه ومذموم

وكل حصن وإن طالت سلامته علي دعائمه لا بد مهـــدوم

وقـــد كثـــرت في شعر طرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة أيضا ومن شعر طرفة في الحكمة قوله :

إذا كنت في حاجة مرســـلا فأرسل حكيماً ولا توصــــه

وإن ناصح منك يوما دنـــا فلا تنأ عنه ولا تقصـــــه

وإن باب أمر عليك التـــوي فشاور لبيباً ولا تقصـــــه

وذو الحق لا تنقصن حقــــه فإن القطيعة في نقصـــــه

ولا تذكر الدهر في مجلس حديثاً إذا أنت لم تحصـــــه

ولا تحرصن فرب امــــرئ حريص مضاع علي حرصه

ويلخص لنا الشاعر الجاهلي رأي الجاهليين في المرأة وما تطلبه من الرجل فيقول :

فإن تسألوني بالنساء فإنـــــي بصير بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصيب

ويظهـــر أن الحكمـــة قديمة عندهم ، فنحن نجدها في معلقة عبيد بن الأبرص وفيها يقول :

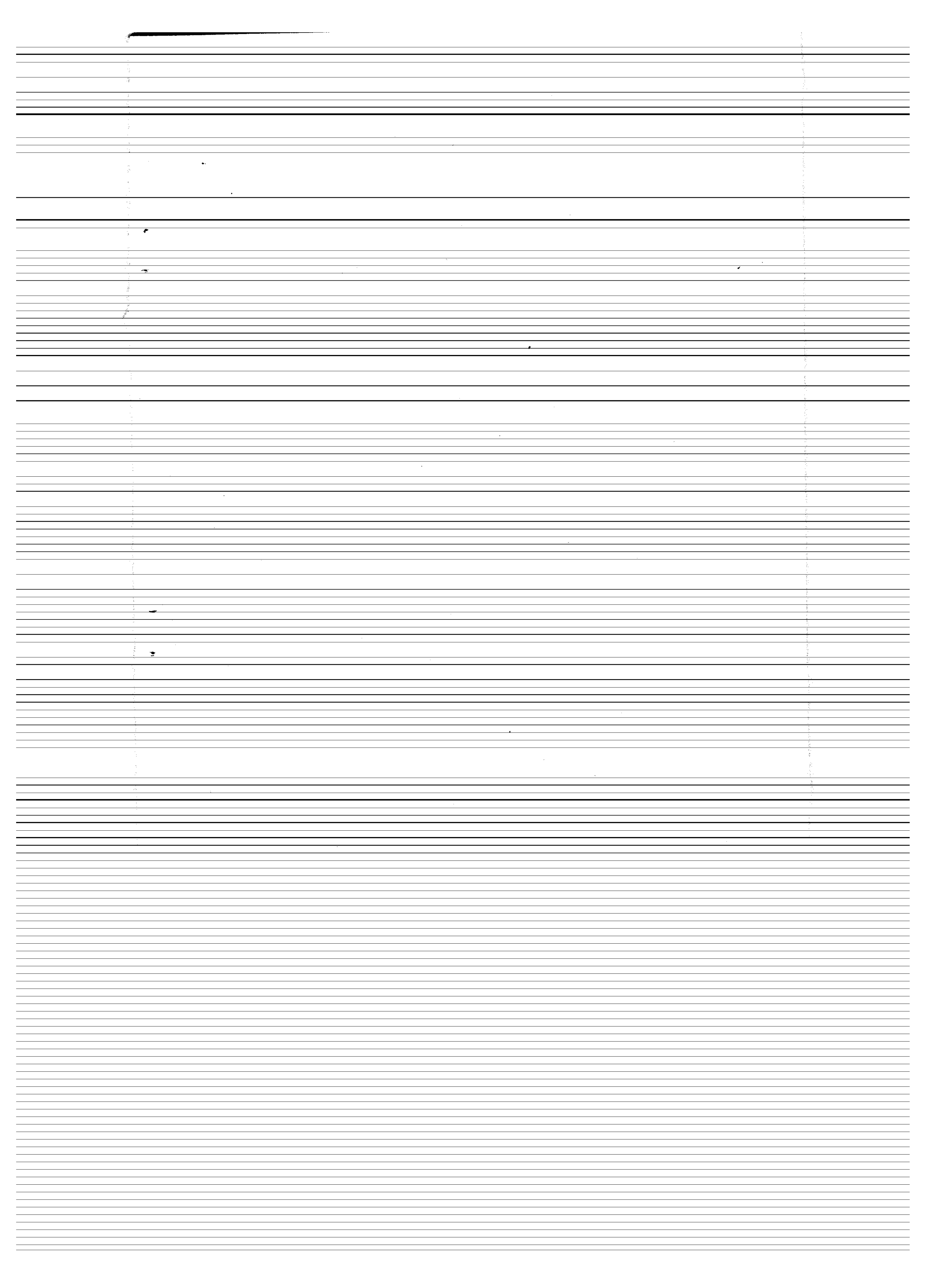
وكـــل ذي غيبـــة يئـــوب وغائـــب الموت لا يئـــوب

وهكـــذا نجـــد الحكمـــة في الشعر منثورة في تضاعيف الأغراض الأخري ، والحكمة تدل علي حنكة الجاهلي وطول تجربته ومعرفته الصحيحة بالأشياء .

– وهناك أغرض أخري للشعر الجاهلي لم يقف عندها النقاد العرب ربما لقلتها بالنسبة للأغراض الأخري ، ومن هذه الأغراض العتاب، الخمـــريات ، شـــرح الفكاهـــة والمرح ، السخرية إلي غير ذلك من الأغراض التي لم يفرد لها النقاد أبواباً خاصة في العصر الجاهلي .

الفصل الرابع

مدارس الشعر الجاهلي



❄ مدارس الشعر الجاهلي

(١) مدرسة شعراء المعلقات

المعلقـــات هي مجموعة من القصائد الطوال الجيدة التي كانت أوفر حظـــاً من بين الشعر الجاهلي بالحفظ والعناية ، وهذه المعلقات هي لطائفـــة مـــن الشعراء الجاهلين عرفوا بالإجادة لذا تعد المعلقات من أجود وأروع ما وصل إلينا من التراث العربي طوال هذه الأزمنة ، كمـــا تعد من أهم وثائق الشعر الجاهلي التي بلغت شهرتها وشيوعها حدا كبيراً .

*** مدلول لفظة معلقات .**

اختلف المؤرخون في مدلول لفظة " معلقات " :

(١) يـــري جمهور المؤرخين أن لفظة معلقات جاءت من أن العرب اخـــتارت هـــذه القـــصائد الطويلة الجيدة ثم كتبتها بماء الذهب علي القباطي " نوع من القماش " ثم علقتها علي جدران الكعبة أو بداخلها إعجابـــاً بهـــا وإشادة بذكرها ، وقد بقي بعضها إلي يوم فتح مكة ، وذهب البعض الآخر في حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام .

– إذن يري جمهور المؤرخين أن لفظة معلقات أخذت من تعليق هذه القصائد علي الكعبة وهو الرأي الراجح .

(٢) يـــري الخطـــيب التبريزي أن كلمة معلقات مأخوذة من تعلق الأذهان بها ، فيقول إن لفظة معلقات جاءت من أنها علقت بأذهان صغار الجاهليين وكبارهم ورؤسائهم ومرؤسيهم وذلك لشدة عنايتهم بها .

(٣) يـــري أبو جعفر النحاس ، وهو شارح من شراح المعلقات ، أن لفظـــة معلقات مأخوذة من تعليقها في خزانة الملك ، وهو بذلك ينكر تعلـــيقها علـــي الكعبة ، فيقول في شرحه للمعلقات (إن العرب كان أكثـــرهم يجـــتمعون بعكاظ ويتناشدون الأشعار فإذا استحسن الملك القـــصيدة قـــال : علقوها وأثبتوها في خزانتي) ويقصد بالملك هنا الـــنعمان بـــن المنذر الذي كان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول .

– إذن يشترك أبو جعفر النحاس مع جمهور المؤرخين في أن لفظة معلقات جاءت من (التعليق) ولكن المؤرخين يرون أنها كانت تعلق علي الكعبة ، أما هو فيري أنها كانت تعلق في خزانة الملك .

(٤) يـــري بعـــض المســتشرقين وأبـــرزهم المســتشرق الألمـــانـــي " نولدكي" [١] أن لفظة معلقات مأخوذة من لفظ (علق) وهو الشئ النفيس وأنها سميت بذلك الاسم لنفاستها تشبيها لها بالقلائد النفيسة التي تعلق في النحور " الصدور "

– والذي يميل إليه الكثير من الباحثين والكتاب أن التعليق كان علي الكعبة ، يؤيد ذلك أن تعليق الصحائف الخطيرة علي الكعبة كان سنة متــبعة في الجاهلية بقي أثرها في الإسلام ، ومن ذلك تعليق قريش الــصحفية التي قاطعوا بها بني هاشم وعبد المطلب وذلك لحمايتهم لرســول الله " صلي الله عليه وسلم" حين أصر علي الدعوة إلي الله ولم ينزل علي رأيهم ، وكذلك تعليق الرشيد عهده بالخلافة من بعده إلي ولديه الأمين والمأمون .

*** *بعض أسماء المعلقات***

عرفت المعلقات في الأدب الجاهلي بعدة أسماء منها :

(١) المعلقــات : وقــد مضي الحديث عنها وعن سبب تسميتها بهذا الاسم علي ما فيه من خلاف في الاشتقاق ....

---

[١] وضع نولدكي كتابا في هذا الموضوع رجح فيه أن المعلقات معناها المنتخبات وإنما سماها حماد الراوية بهذا الاسم تشبيها لها بالقلائد التي تعلق في النحور ، واستدل علي ذلك بان من أسمائها السموط ومن معاني السموط القلائد . ينظر . تاريخ الأدب العربي – الزيات صـــ٣٤ هامش .

(٢) **المذهبات** : وهذا الاسم مأخوذ من كتابة المعلقات بماء الذهب لجودتها ونفاستها .

- وهـــذه التسمية (المذهبات) أوردها ابن قتيبة في كتابة (الشعر والشعراء) أثناء حديثه عن ترجمة عنترة بن شداد العبسى فقال عن معلقته : (وهي أجود شعره وكانوا يسمونها مذهبة) .

- وذكر ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه " العقد الفريد " تلك التسمية وذكر أن المعلقات كتبت بماء الذهب في نوع من القماش يسمي " القباطي " المدرجة ثم علقت .

كمـــا ذكر نفس التسمية ابن رشيق القيرواني في كتابه " العمدة في محاســن الــشعر وآدابـــه ونقـــده " فقال : (كانت المعلقات تسمي المذهبات) ونقل جلال الدين السيوطي عنه ذلك في كتابه " المزهر "

(٣) السمـــوط :

وهــذا الاســـم مأخوذ من السمط : وهو القلادة التي هي أطول من المخـــنقة والـــسمط أيضا هو خيط النظم والعقد لأنه يعلق . والسمط مفرد جمعه سموط . وإذا كانت القلادة ذات نظمين فهي ذات سمطين وأنشد لطرفة :

وفي الحي أحوي ينقض المرد شادن

مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد [١]

---

[١] لسان العرب جـ٣ صـ٢٠٩٣ ط دار المعارف .

وهــذه التــسمية " ســموط " تنسب إلي حماد الراوية ، وتبعه فيها المفــضل الــضبي صاحب " المفضليات " ثم نقلها عنهما أبو زيد القرشي صاحب " جمهرة أشعار العرب " فقال بعد أن فرغ من ذكر أصــحاب المعلقات : (هؤلاء أصحاب السبع الطوال ، التي تسميها العرب (السموط) .

(٤) السبع الطوال

وتنــسب هــذه التــسمية إلــي " حماد الراوية أيضا " وسماها كذلك لطــولها، وقد يطلق عليها أحيانا " الطوال " فقط دون السبع وكذلك تنــسب تسمية " السبع الطوال " إلي أبي زيد القرشي فقد ذكرها في جمهــرته ، وذكــرها كــذلك صاحب كتاب " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " وهو ابن الأثير .

– وقــد أضــاف ابن الأنباري إلي التسمية كلمة " الجاهليات " فجاء شرحه للمعلقات بعنوان (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات)

– وفي النهاية تبقي تسمية " المعلقات " هي صاحبة الحظ الأوفر من الشهرة والذيوع رغم تعدد التسميات فلم تلق تسمية أخري نفس شهرة تسمية " المعلقات " ولذلك تناولتها الألسنة والأقلام وتظل هي الأشهر إلي يومنا هذا .

عدد المعلقات

لأن الاعــتماد كان علي الرواية الشفوية نجد أن المؤرخين القدامي اختلفوا في عدد المعلقات

- فمنهم من قال إنها سبع قصائد
- ومنهم من قال إنها تسع
- ومنهم من قال إنها عشر
- ولكن تظل الأكثرية دائماً علي أنها سبع لا تسع ولا عشر .

وهي :

الأولي : لامرئ القيس ومطلعها :

قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل

بسقط اللوي بين الدخول فحومل

الثانية : لطرفة بن العبد ومطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

الثالثة : لزهير بن أبي سلمي ومطلعها :

أمن أم أوفي دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

الرابعة : للبيد بن ربيعة ومطلعها :

عفت الديار محلها فمقامها بمني تأبد غولها فرجامها

الخامسة : لعمرو بن كلثوم ومطلعها :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

السادسة : لعنترة العبسي ومطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم

السابعة : للحارث بن حلزة ومطلعها :

آذنتنا ببينها أسمـــــاء   رب ثاو يمل منه الثواء

*** متي جمعت المعلقات ؟**

يـــري المؤرخون أن المعلقات قد جمعت في أواخر العصر الأموي وأوائـــل العـــصر العباسي الأول . وأن أول من جمع هذه القصائد الـــسبع هـــو " حماد عجرد " المعروف بحماد الراوية المتوفي سنة ١٥٥هـــ ولكن يبقي الخلاف بين الشراح وأصحاب الاختيارات حول الشعراء السبع أصحاب المعلقات .

(١) فالمـــشهور عـــند أغلب المؤرخين والشراح أن الشعراء السبع أصحاب المعلقات هم :

امـــرؤ القـــيس ، طرفه ، زهير ، لبيد ، عنترة ، عمرو بن كلثوم ، الحارث بن حلزة .

(٢) ولكن أبا زيد القرشي صاحب كتاب " جمهرة أشعار العرب " قد افتتح اختياراته بالمعلقات وجعل أصحابها سبعة ولكنه غير اثنين من الشعراء السابقين . فالسبعة عنده هم :

امـــرؤ القـــيس ، طـــرفه ، زهير ، لبيد ، عمرو بن كلثوم ، النابغة الذبياني ، الأعشي " ميمون بن قيس "

واختار للنابغة الذبياني معلقته التي مطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ... ماذا تحيون من نؤي وأحجار

واختار للأعشي معلقته التي مطلعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

فمن الملحوظ أن أبا زيد القرشي قد أغفل معلقتي عنترة ، والحارث ابن حلزة ووضع مكانهما معلقتي النابغة والأعشي ، فهم عنده سبعة ولكن مع الاختلاف عن السبعة الأوائل في اثنين .

(٣) ثم جاء أبو جعفر النحاس المتوفي سنة ٣٣٨هـ وجعل المعلقات تسعاً هم السبعة الأوائل والاثنان اللذان وضعهما أبو زيد القرشي وغير فيهما .

فالتسعة عند أبي جعفر هم :

امرؤ القيس ، وطرفه ، وزهير ، ولبيد ، وعنترة ، عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، والنابغة الذبياني ، والأعشي .

بيد أنه أختار قصيدة أخري للنابغة غير التي اختارها أبو زيد القرشي فجعل معلقة النابغة القصيدة الدالية التي مطلعها :

يا دار مية بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأبد

(٤) ثم جاء الخطيب التبريزي فجعل المعلقات عشراً وأصحابها هم نفس التسعة الذين ذكرهم أبو جعفر النحاس وزاد هو العاشرة وهي القصيدة البائية لعبيد بن الأبرص والتي مطلعها :

أقفر من أهله ملحوب ... فالقطبيات فالذنوب

فأصحاب المعلقات عنده هم : امرؤ القيس ، طرفه ، زهير ، لبيد ، عنتـــرة ، عمـــرو بن كلثوم ، الحارث بن حلزة ، النابغة الذبياني ، الأعشي ، عبيد بن الأبرص .

**** أهم الشروح للمعلقات***

مـــن أهـــم الـــشروح للمعلقات سواء بمفردها أو داخلة ضمن أشعار أخري هي :

- جهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري
- شرح المعلقات التسع لأبي جعفر النحاس
- شرح المعلقات السبع لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني
- المعلقات العشر للخطيب التبريزي

وهناك كتب تحدثت عنها ، وعن أشعار أخري ولم تخصها بالحديث أو الشرح كالمفضليات والأصمعيات والمثل السائر والعقد الفريد والمزهر .....الخ .

شعراء المعلقات

(١) امرؤ القيس

هو امرؤ القيس حندج بن حجر بن عمرو الكندي [١] ، من قبيلة كندة اليمنية ، ومن بيت السيادة فيها ، فأبوه سليل الملوك من كندة ، وملك بني أسد ، وأمه أخت كليب ومهلهل ابني ربيعة فشب في حجر النعيم ودرج في مهد الترف والنعمة ، إلا أنه نشأ نشأة الغواة يشرب الخمر ويغـــازل النساء ويعشق اللهو ، ويقول الشعر ، ثم أطلق لنفسه عنان المجون والخلاعة ، وقعدت به نفسه عما تطمح إليه النفوس الكبيرة ، فطرده أبوه وكان أصغر أولاده ، فخرج في زمرة من أخلاط العرب وعرضهم يذهبون إلي الرياض والغدران يشربون الخمر ويصيدون ويلعبون وظلت تلك حاله حتي جاءه نعي أبيه وقد قتله بنو أسد غيلة إذ أصـــابوا مـــنه غرة فقتلوه لأن استبد بهم ، وساءت سيرته فيهم ، وروايات قتله متعددة ذكرها صاحب " الأغاني " . ساعتها قال امرؤ القـــيس :" ضيعني أبي صغيراً وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا ســـكر غـــداً ، اليوم خمر وغداً أمر " ثم أقسم إلا يأكل لحماً ولا

---

[١] تترد في كتب الأدب أسماء مختلفة لامرؤ القيس ، فيسمي حندجاً وعدياً ومليكة ويكني بأبـــي وهـــب وأبي زيد وأبي الحارث ، ويلقب بذي القروح والملك الضليل وأشهر ألقابه امـــرؤ القـــيس ، والقـــيس من أصنامهم في الجاهلية كانوا يعبدونه وينتسبون إليه – ينظر العصر الجاهلي / لشوقي ضيف صـــ ٢٣٦ .

يشرب خمراً ولا يضع طيباً حتي يقتل من بني أسد مائة ويجز نواصي مائة [١]

ويظهر أن بني أسد سمعوا بذلك وعلموا به فخافوا العاقبة ، فأرسلوا إليه وفداً للمفاوضة ، وعرض عليه الوفد إحدي ثلاث :

القصاص ، أو الفدية ، أو الإمهال حتي تضع الحوامل ، ثم تعقد الرايات وتكون الحرب ، فقال : " لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم ، وإني لن أعتاض به جملاً أو ناقة ، فاكتسب بذلك سبة الأبد ، وفت العضد ، وأما النظرة " الإمهال " فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سببا ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنة علقا " دما " ورويداً ينكشف لكم دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير فنهضوا عنه " وقد علموا أنه طالبهم أي سيحاربهم حتي يأخذ بثأره منهم وأقبل امرؤ القيس يستنصر القبائل ليأخذ بثأره من بني أسد فنصرته قبائل وخذلته أخري حتي لحق ببني أسد وقتل منهم لكثير وجرح الأكثر وهرب منه بقيتهم فتبعهم ، وفي أثناء ذلك كانت بعض القبائل تنصره بالمال والرجال ، وكان يستأجر من القبائل رجالا للقتال معه فسار بهم إلي بني أسد ويقال إنهم عادوا فتركوه ، وهنا أخذ ملك الحيرة يؤلب عليه القبائل ظناً منه أنه يحاول إرجاع ملك آبائه

---

[١] تاريخ الأدب العربي / الزيات صـ ٤٦ بتصدف .

وأجــداده فخــرج امــرؤ القيس شريداً ينتقل بين أمراء قبائل يطلب الجــوار حتــي دله رجل من بني فزارة علي السموأل بن عادياء، صاحب حصن الأبلق بتيماء ، فلجأ إليه وطلب منه أن يكتب له إلي الحارث بن جبلة الغساني بالشام ليوصله إلي قيصر ، واستودعه أهله وأمــواله وما كان معه من سلاح ومضي حتي انتهي إلي قيصر في القسطنطينية فأكرمه القيصر ورفع منزلته ، وضم إليه جيشا كثيفاً ، ولمــا سافر امرؤ القيس بالجيش ، اندس إلي القيصر رجل من بني أسد فقال له : (إن امرأ القيس غوي عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجــيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها ، وهو قائل في ذلك أشــعاراً يــشهرها بهــا في العرب يفضحها ويفضحك ، فبعث إليه القيصر حينئذ بحلة موشاة مسمومة منسوجة بالذهب ، وقال له : إني أرســلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك ، فإذا وصلت إليك فالبــسها باليمن وبالبركة واكتب إلي بأخبارك من منزل منزل " أي في أي مكان تنزل فيه " فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها ، فأســرع فيه السم وسقط جلده ، فلذلك سمي " ذا القروح " فلما وصل إلــي " أنقــرة " وكانت بلدة من بلاد الروم احتضر بها ، ورأي قبر امــرأة مــن أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سفح جبل يقال له " عسيب " فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال :

أجارتنا إن المزار قريب   وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان هاهنا   وكل غريب للغريب نسيب

ثم مات فدفن إلي جنب المرأة وقبره هناك .

- ذكر رواة أيام العرب أن امرأ القيس كان يعشق عنيزة ابنة عمه شرحبيل وكان لا يحظي بلقائها ووصالها ، فانتظر ظعن الحي " سفرهم " وتخلف عن الرجال حتي إذا ظعنت النساء سبقهن إلي الغدير المسمي " دارة جلجل " واستخفي ثم علم أنهن إذا وردن الماء اغتسلن ، فلما وردت العذاري اللواتي كانت عنيزة فيهن ونضون ثيابهن " خلعنها " وشرعن في الانغماس في الماء ظهر امرؤ القيس وجمع ثيابهن وجلس عليها ، ثم حلف علي أن لا يدفع إليهن ثيابهن إلا بعد أن يخرجن إليه عاريات ، فخاصمنه زمنا طويلا من النهار فأبي إلا إبرار قسمه ، فخرجت إليه أوقحهن فرمي بثيابها إليها ، ثم تتابعن حتي بقيت عنيزة وأقسمت عليه فقال : يا ابنه الكرام لا بد لك من أن تفعلي مثل ما فعلن ، فخرجت إليه فرآها مقبلة ومدبرة ، فلما لبسن ثيابهن أخذن في عذله " لومه " أو قلن : قد جوعتنا وأخرتنا عن الحي .

فقال لهن : لو عقرت راحلتي أتأكلن ؟

قلن : نعم .

فعقر راحلته ونحرها ، وجمعت الإماء الحطب وجعلن يشوين اللحم إلــي أن شــبعن ، وكانت معه ركوة فيها خمر فسقاهن منها ، فلما ارتحلــن قــسمن أمتعته فبقي هو دون راحلة ، فقال لعنيزة : يا ابنة الكرام لا بد لك من أن تحمليني ، وألحت عليها صواحبها أن تحمله علــي مقدم هودجها ، فحملته ، فجعل يدخل رأسه في الهودج يقبلها ويشمها وذكر هذه القصة في أثناء القصيدة .

شعره :

نشأ امرؤ القيس في صميم العرب الخلص ، فسمع الأشعار ورواها ، وتطلعت نفسه إلي مساجلة الشعراء فقال الشعر وهو صغير السن .

- وكــان جزل الألفاظ كثير الغريب ، جيد السبك ، سريع الخاطر ، بديــع الخيال بليغ التشبيه ، وقد فتقت الأسفار والأخطار والمخالطة قــريحته ، فاســتنبط المعانــي الجديــدة ، ونهج المذاهب الحديثة ، وارتــسمت فــي شعره محدثات عصره فنسبت إليه لنبوغه وتفوقه وجاهــه ، فقالوا إنه أول من وقف علي الأطلال وبكي علي الديار . يؤكد ذلك مطلع معلقته :

قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل   بسقط اللوي بين الدخول فحومل

فقــد عــد القدماء هذا المطلع من مبتكراته إذ وقف واستوقف وبكي وأبكي من معه وذكر الحبيب والمنزل .

- وقالـــوا إنه أول من شبب بالنساء وشبههن بالمها والظباء ، وأجاد وصف الليل والخيل لكثرة ركوبه وكثرة أسفاره .

- وإنـــك لـــتجد في شعره صورة كاملة من حياته وخلقه ، فهو في غزله داعر فاجر يصرح ولا يلمح ، ويكشف ولا يتعفف كمثل قوله:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلـــي

تقول وقد مال الغبيط بنا معـاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جناك المعـــلل

فمثلك حبلي قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محـــول

إذا ما بكي من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحـــول

- وهو يذكر في جزء كبير من معلقته مثل هذه الأبيات وأكثر منها تصريحا أما كرمه فكمثل كرم الملوك يذبح راحلته للعذاري ويذهب للـــصيد فيصطاد ويتركه لأصحابه يأكلون غير عابئ ولا مهتم ولا شحيح ، حيث يقول :

فألحقنا بالهاديـــات ودونـــه جواحرها في صرة لم تزيل

فعادي عداءً بين ثور ونعجـــة دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل

فظل طهاة اللحم من بين منضح صفيف شواء أو قدير معجل

- أمـــا وصـــفه ففيه دقة ناحتي التماثيل حتي يخيل إليك وأن تسمع وصفه أنك تنظر إلي تمثال أمامك واضحة فيه كل التفاصيل الدقيقة . تجلي ذلك في وصفه لليل ، وفي وصفه لفرسه ...... الخ

إذ يقول :

وليل كموج البحر أرخي سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلـــي

فقلت له لما تمطـــي بصلبــــه وأردف أعجازا وناء بكلكـــل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلـــى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيالك من ليـــل كـــأن نجومــــه بكل مغار الفتل شدت بيذبـــــل

فهـــو يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهي ويحس وأنه طـــال وأســـرف في الطول حتى ليظن أن نجومه شدت بأحبال إلي الجبال فهي لا تتحرك ولا تزول .

وعلي مثل هذا النسق تسير مطولته في العديد من الأغراض الشعرية وفـــيما سبق ما يدلك علي قيمة امرئ القيس فهو الذي نهج للشعراء الجاهليين الحديث في عديد من الأغراض اخترعها هو ، لذا يعد أباً للشعر الجاهلي بل للشعر العربي جميعه فقد استوي عنده في صورة رائعـــة , ســـواء مـــن حيث سبقه إلي فنون أجاد فيها , أو من حيث قدرته علي الوصف والتشبيه .... الخ .

(٢) طرفة بن العبد

الشاعر طرفة : هو عمرو بن العبد بن سفيان يمتد نسبه إلي بكر بن وائل ليصله إلي ربيعة فهو واحد من شعراء ربيعة [١].

وطـــرفة بالتحـــريك لقبه وهي واحدة الطرفاء وهو نوع من الشجر والعرب كانت تسمي أبناءها بما غلظ و خشن من الشجر تفاؤلاً نحو طلحة وسمرة وقتادة ، كما تسمي بأسماء الحيوان وخاصة ما يستكره مـــنها كأسد وحنظلة وحرب وعلقمة لأنها تشعر بالشدة والقوة لدي سامعيها بينما يسمون عبيدهم بما يستحب كرباح وأيمن ، وذلك لأنها سمت أبنائها لأعدائها وسمت عبيدها لأنفسها [٢]

نـــشأ طرفة يتيماً من أبيه فكفله أعمامه فأهملوا تربيته وأساءوا أدبه فـــشب مـــيالا إلي الدعة والتبطل ، عاكفا علي اللهو والخمر مولعاً بالوقوع في أعراض الناس.

وكان طرفة من أسرة شاعرة نبغ فيها أكثر من شاعر ، لذا فقد كان شاعراً جريئاً علي الشعر وكيف لا وخاله المتلمس الضبعي الشاعر المشهور ، وأخته الخرنق شاعرة و عمه المرقش الأصغر والمرقش

---

[١] الـــشعر والـــشعراء جـــ١ صـــــ١٩١ تحقيق أحمد شاكر ط دار التراث العربي ١٩٧٧ .

[٢] الاشتقاق لابن دريد صـــــ٤ تحقيق عبد السلام هارون الناشر مؤسسة الخانجي سنة ١٩٥٨ م.

الأكبر عم المرقش الأصغر وهما شاعران , ومن أسرته الحارث بن حلــزة صـــاحب المعلقة فورث بذلك الموهبة الفنية كما يرث الناس المال والشرف.

كانــت أخت طرفة متزوجة من رجل يسمي عبد عمرو بن بشر بن عمـــرو بـــن مرثد وكان هذا الرجل سيد أهل زمانه وكان من أحب الـــناس إلـــي عمرو بن هند الملك فشكت أخت طرفة شيئاً من أمر زوجهـــا إلي طرفة فعاب عبد عمرو وهجاه فخرج مرة عبد عمرو يصطاد مع عمرو بن هنذ فرمي صيداً فقال لعبد عمرو أنزل فأذبحه فحـــاول عبد عمرو ولم يستطع وأعياه ذلك من التعب فضحك الملك وقال . لقد صدق طرفة حينما هجاك فقال :

ولا خير فيه غير أن له غني وأن له كشحاً إذا قام أهضمـــا

تظل نساء الحي يعكفن حوله يقلن عسيب من سرارة ملهما

وكان طرفة قد هجا من قبل عمرو بن هند , فلما قال عمرو بن هند لعــبد عمرو ما قال طرفة قال : ما قال فيك أشد مما قال في، وأنشد هجاء طرفة لابن هند حيث يقول :

فليت لنا مكان الملك عمـــرو رغوثا حول قبتنا تخــور

لعمرك إن قابوس بن هنـــد ليخلط ملكه نوك كثـــيـــر

قسمت الدهر في زمن رخي كذاك الحكم يقصد أو يجور

فقال عمرو بن هند:أو قد بلغ من أمره أن يقول في مثل هذا الشعر ؟

فأرسل إلي طرفة وخاله المتلمس – وكان المتلمس قد هجاه أيضا – فأتـــياه فهش للقائهما يريد أن يؤمنها وأمر لكل منها بصلة وعطاء وأعطي كلاً منهما رسالة في يده إلي عامله بالبحرين ليأخذا الصلة منه ، ولكن الرسائل كان مكتوماً فيها أمر بقتلهما – وكانا لا يجيدان القـــراءة فلمـــا كانـــا في طريقهما إلي العامل ، داخل المتلمس من الـــصحيفة وسواس . وقال لطرفة " تعلمن والله أن ارتياح عمرو لي ولك لأمر مريب عندي ولن أنطلق بصحيفة لا أدري ما كتب فيها ؟ فقال طرفة : إنك لسيئ الظن ففك المتلمس ختم الصحيفة ثم جاء إلي غـــلام من أهل الحيرة فقال له : أتقرأ يا غلام ؟ فقال نعم . فأعطاه الـــصحيفة فقـــرأها فـــإذا فيها باسمك اللهم , من عمرو بن هند إلي المكعبـــر ، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه ثم أدفنه حياً فقال الغلام : أنت المتلمس؟ قال نعم ، قال النجاة بنفسك فقد أمر بقتلك ، فألقي الصحيفة في النهر ، ثم قال لطرفة معك والله مثلها فقال طرفة : لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذي يجترئ عليّ ، وأبي أن يطـــيعه وخـــرج حتـــى أتي صاحب البحرين بكتابه ، فقال له صـــاحب البحرين ، إنك في حسب كريم وبيني وبين أهلك إخاء قديم وقد أمرت بقتلك فاهرب إذا خرجت من عندي فإن كتابك إن قرئ لم أجـــد بـــداً من أن أقتلك . فأبي طرفة أن يفعله ، فقتله وعمره ست وعشرون سنة ، وقيل عشرون فقط علي اختلاف في الروايات .

شعـــــره

طرفة صاحب شخصية واضحة في شعره , وصاحب مذهب واضح فــي حياته فهو داعية من دعاة اللهو واللذة , وجمع إلي فتوة الشباب وطيشه حكمة الشيوخ وتفكيرهم .

وكـــان طـــرفة منذ حداثته متوقد الذهن ، مضطرم الشعور ، حاد العاطفـــة ، سريع التأثر ، فنبغ في الشعر وعد من فحوله وهو دون العـــشرين ، ولكـــنه كعمرو بن كلثوم لم يشتهر إلا بمعلقته ، ولعله مكثراً وجهل الرواة أكثر شعره .

وقـــد عد ابن سلام في قمة الطبقة الرابعة طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد وقال عن طرفة : أما طرفة فأشعر الناس واحدة (قصيدة واحدة) وهي قوله :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد [١]

وشـــهد بذلك ابن قتيبة في كتابة الشعر والشعراء حيث قال : (قيل

---

(١) طبقات فحول الشعراء / السفر الأول صـــ ١٣٨.

للبـــيد بن ربيعة من أشعر العرب ؟ فقال الملك الضليل قيل ثم من ؟ قال ابن العشرين قيل ثم من؟ قال الشيخ أبو عقيل يعني بذلك نفسه[١]

ويمتاز شعر طرفة بصدق الوصف ، والبعد عن الغلو والمبالغة فيه إلا أن تــراكيبه كانـــت معقدة , ومعانيه مبهمة , وألفاظه غريبة نجد ذلك كله بوضوح حين تقرأ معلقته التي ابتدأها بالغزل ، ثم استطرد إلي وصف ناقته بأبيات كثيرة من خير عيون الشعر العربي ومبتكره ثم أمعن بعد ذلك في الفخر بنفسه ومعلقته من امتن الشعر وأبلغه ومن أبياته في وصف ناقته :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتـــدي[٢]

أمون كألواح الإران نصأتهـــا علي لا حب كأنه ظهر برجـــد[٣]

جمالية وجناء تـــردي كأنهـــا سفنجة تبري لأزعـــر أربـــد[٤]

تباري عتاقاً ناجيات وأتبعـــت وظيفاً وظيفاً فوق مـــور معبد[٥]

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ صـ ١٩٥

(٢) الاحتضار : الحضور . والعوجاء : الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها .

المرقال: مشي بين السير والعدو

(٣) الأمون : التي يؤمن عثارها . الإران : التابوت العظيم ـ نصأتها : زجرتها ، اللاحب : الطريق الواضح ، البرجد : كساء مخطط .

(٤) الجمالية : الناقة التي تشبه الجمل ، الوجناء المكتنزة اللحم ، الرديان : عدو الحمار السفنجة : النعامة ، تبري : تعرض ، الأزعر : القليل الشعر ، الأربد : الذي لونه لون الرماد .

تريع إلي صوت المهيب وتتقي بذي خصل روعات أكلف ملــبد[١]

ومن أبياته في الفخر بنفسه :

إذا القوم قالوا من فتي خلت أنني عنيت فلم أكســل ولـــم أتبلـــد

ولست بحلال التــلاع مخافـــة ولكن متي يسترفد القــوم أرفـــد

فإن تبغني في حلقة القوم تلفنـــي وإن تلتمسني في الحوادنيت تصطد

وإن يلتق الحي الجميع تلاقنـــي إلي ذروة البيت الشريف المصمد

ومــن أبــياته التي يصف نفسه فيها باللهو وشرب الخمر حتى أتلف ماله وأصبح وحيد كالبعير الأجرب المطلي بالقار قوله :

ومازال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلي أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفـــراد البعير المعبد

وأخيراً ينهي معلقته بهذه الحكمة :-

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار مــن لــم تزود

ويأتيك بالأخبار من لم تبع لـــه بتاتا ولم تضرب له وقت موعد

ومــاذا كنا ننتظر من هذا الشاعر الشاب لو قدر له أن يعيش طويلاً وقــد تفتحت شاعريته هذا لتفتح العبقري في تلك السن المبكرة التي عاجله الموت فيها ؟ .

---

(٥) العتاق جمع عتيق وهو الكريم ، الناجيات : المسرعات في السير ، الوظيف : ما بين الرسغ إلي الركبة ، المور : الطريق ، المعبد : المذلل .

(١) الريع : الرجوع ، الإهابة : دعاء الإبل وغيرها ، ذي خصل : يقصد الذنب ، الروع : الإفزاع ، الأكلف : الذي يضرب إلي السواد ، ملبد : وبر متلبد

(٣) زهير بن أبي سلمي

هـــو زهير بن أبي سلمي بن ربيعة بن رياح المزني ، أبوه من قبيلة مـــزينة ولكـــن زهيراً نشأ وتربي في أقارب أبيه من بني غطفان . وكان مشهوراً بحكمته وسداد رأيه ، ورزانته وحبه للسلام ، وقد نظم معلقته وهي الثالثة في المعلقات علي أثر الحرب التي دارت رحاها بين عبس وذبيان وتسمي حرب داحس والغبراء ، وداحس هو فرس قيس بن زهير سيد بن عبس ، والغبراء مهرة حمل بن بدر سيد بني ذبـــيان ، ودارت الحـــرب بسبب سباق داحس والغبراء ، وذلك أن زهيراً وحملا تراهنا علي مائة بعير يدفعها من يخسر السباق إلي من يربحه ، ولما كان اليوم المعين بعث حمل بن بدر من يكمن لداحس ويـــرده عـــن غايته إذا جاء سابقاً ، ثم أرسل الفرسان فبرز داحس وسبق الغبراء حتى شارف الغاية وقرب من النهاية ودنا من الكمين ، فوثبوا عليه وردوه فسبقت الغبراء .

وبعث حمل ابنه مالكاً إلي قيس يطلب منه حق السبق فأبي قيس دفعه وقـــتل مالكاً ، فكان ذلك باعثاً علي الحرب ، وقد طالت هذه الحرب وكثر فيها القتلى حتى أصلح بين المتحاربين هرم بن سنان والحارث بن عوف ودفعا الديات من مالهما ، وقيل إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير فـــنظم زهيـــر معلقته يمدح فيها المصلحين لحقنهما الدماء ، ويحذر الفريقين من شر الخيانة وإضمار الحرب ، وقد توسع في معلقته في

وصف الحرب ونتائجها المشئومة ثم ختم المعلقة بحكمه التي استحق بها لقب الشاعر الحكيم .

– وظل زهير طوال حياته يمدح هرماً ويمجده وأطنب في ذلك كثيراً ومن طريف ما يروي في ذلك أن هرماً " حلف ألا يمدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه : عبداً أو وليدة أو فرســاً ، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه في ملأ قال : عموا صباحاً إلا هرماً وخيركم استثنيت " .

– وقــال عمر بن الخطاب لبعض أولاد هرم : أنشدني بعض مدائح زهير في أبيك فأنشده . فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم القول . فقــال : والله ونحن كنا نحسن له العطاء ، فقال عمر : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

– وكــان زهيــر وثنياً مثله مثل قومه ، غير أن له أبياتاً تدل علي إيمانه بالله واليوم الآخر وما فيه من حساب إذا يقول :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم	**ليخفي ومهما يكتم الله يعلم**
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر	**ليوم الحساب أو يعجل فينقم**

وقــد عمر زهير طويلاً حتى زاد عمره علي المائة وذلك مأخوذ من شعره في قوله :

بدالي أني عشت تسعين حجة   تباعاً وعشراً عشتها وثمانيا

فيكون مجموع ما ذكر مائة وثمانية أعوام ، وتوفي قبل الإسلام بفترة قليلة ، أما ولداه كعب وبجير فقد أدركا الإسلام وأسلما وحسن إسلامهما .

شعره :

عاش زهير للشعر يرويه ويعلمه ، فقد ذهب القدماء إلي القول بأنه كان يروي شعر زوج أمه أوس بن حجر الشاعر التميمي المشهور ، كما كان يروي شعر طفيل الغنوي المعروف بالبراعة في الوصف خاصة الخيل والصيد ، وأيضا فإنه كان يروي شعر خاله بشامة بن الغدير أضف إلي ذلك أنه علم ابنه كعباً الشعر وتتلمذ علي يديه الحطيئة الشاعر المعروف بكثرة أهاجيه ...... الخ

إذن فقد خرج زهير من بيت عريق في الشعر وذلك لم يكن لغيره من الشعراء . ففي الناس من يفضله علي امرئ القيس والنابغة وذلك لأن شعره يمتاز بصدق اللهجة ، وحكمة المجرب ، ودقة المصور ووقار العالم ، كما يمتاز شعره بألفاظ محكمة وصيغ مجودة خلت من الحوشي والتعقيد ، وبعدت عن السخف والمبتذل والمهجور ، واستطاع زهير أن يؤدي أجمل صورة للشعر الجاهلي في لفظه وقوالبه وصيغه ، وقد حكي القدماء عنه في ذلك كثيرا فقالوا إنه كان يضع قصائده الطويلة في حول كامل . وله قصائد سبع تسمي

" الحوليات " يزعمون أنه كان ينظمها في أربعة أشهر ، ويهذبها في أربعة أشهر ، ثم يعرضها علي خاصة الشعراء في أربعة أشهر فلا ينشدها الناس إلا بعد حول .

– ويعلق الجاحظ علي شعر زهير فيقول : (من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كاملاً وزمنا طويلا يردد فيها نظرة ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه .... وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ....)

ويروى عن عمر بن الخطاب قوله : (زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل في الكلام ، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه) .

– ومعلقة زهير موضوعها الأساسي مدح الحارث وهرم لسعيهما بالصلح بين المتحاربين من عبس وذبيان ومع ذلك بدأها الشاعر بالوقوف علي الأطلال كعادة الجاهليين فقال :

أمن أم أوفي دمنة لم تكلم   بحومانة الدراج بالمتثلم

ويقول إنه أتاها (الدمنة أو الأطلال) بعد عشرين سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة لطول عهده بها . فيقول :

وقفت بها من بعد عشرين حجة   فلأيا عرفت الدار بعد توهم

فلما عرفت الدار قلت لربعها   ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم

ثـــم يتابع أبياته في استحضار تلك الذكريات التي تمثلت في خاطره فكأنهـــا ماثلـــة أمام عينيه فيصف الطرق التي سلكها وراء الظعائن والمحبوبات والمنازل التي نزلتها وهو وراءهم .

ثـــم ينـــتقل إلي فكرة الصلح وإلي الرجلين اللذين حقنا بالصلح دماء العـــشائر لاهجاً بالثناء عليهما والمدح لهما ، فكان بذلك شذوذاً علي قاعـــدة الجاهليين التي تدعو دائماً إلي الأخذ بالثار وإيقاد نار الحرب لأتفه الأسباب فيقول :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتمـــــا علي كل حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبساً وذبيان بعدمـــــا تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

ثم ينتقل من مدحهما إلي دعوة الخصوم إلي رأب الصدع ولم الشمل وعدم إضمار الحرب ، ويخوفهم من ذلك بتصوير الحرب في أبشع صورها ، وما تجره علي الناس من بوار وأضرار وأوزار .

– وأخيـــراً تغلـــب علـــيه نزعته الإنسانية والصورة المثالية للسيد الفاضـــل فينـــتقل بشعره إلي مجموعة من الحكم والدعوة إلي مكارم الأخلاق فيقف موقف الحكيم الذي برم بالحياة وتفكر في الموت فيبدأ في الوعظ فيقول :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعـــش ثمانين حولاً لا أبالك يســـأم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهـــرم

ومن لم يصانع في أمور كثـــيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنســـم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتـــم
ومن يك ذا فضل فيبخـــل بفضلـــه علي قومه يستغن عنه ويذمـــم
ومن هاب أســـباب المنايـــا ينلنـــه وإن يرق أسباب السماء بسلـــم
ومن يجعل المعروف في غير أهلـــه يكن حمده ذمـــا عليـــه ويـــندم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحـــــه يهدم ومن لا يظلم الناس يظـلـــم
ومهما تكن عند امرئ من خليقــــة وإن خالها تخفي علي الناس تعلم

ثم يأتي ببيت فيه معني حديث النبي " ﷺ " : " المرء بأصغريه قلبه ولسانه " إن صح الحديث فيقول:-

لسان الفتي نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وأخيراً فقد انتهي الشعر الجاهلي عند زهير إلي صورة رفيعة للخير والحق والجمال علي خلاف ما عهد في أشعار الجاهليين كافة .

(٤) لبيد

هـــو أبـــو عقيل لبيد بن ربيعة العامري ، كان من شعراء الجاهلية المعدودين ، وعنه يقول الزيات : (نشأ ربيب الندي والبأس ، فأبوه ربـــيعه المعتـــرين وعمه ملاعب الأسنة فارس مضر ، وسبب قوله الـــشعر أن الـــربيع بن زياد أمير عبس - وهم أخواله - دخل علي الـــنعمان بـــن المنذر فذكر بالسوء بني عامر وهم قومه ، فلما دخل العامـــريون علـــي الملك وعلي رأسهم ملاعب الأسنة غض منهم ، وذوي وجهـــه عنهم ، فنال ذلك من بني عامر وشق عليهم ، وكان لبـــيد يومئذ صغيراً فسألهم أن يشركوه في أمرهم فاستصغروه ولما ألـــح فـــي المسألة أجابوه ، فوعدهم أن ينتقم لهم بهجاء الربيع حتي يحول بينه وبين منادمة الملك . فقالوا له إنا نبلوك، فقال: وما ذاك؟ قالـــوا : تشتم هذه البقلة ، وأمامهم بقلة دقيقة القضبان قليلة الورق ، لاصـــقة بالأرض ، تدعي الثربة . فقال : " هذه الثربة لا تذكي ناراً ولا تـــؤهل داراً ولا تـــستر جاراً ، عودها ضئيل ، وخيرها قليل ، وفرعها كليل ، أقبح البقول مرعي ، وأقصرها فرعا ، وأشدها قلعا " فأذنوا له فهجاه بأرجوزة مقذعة أولها :

مهلا - أبيت اللعن- لا تأكل معه ...... الخ

فنفـــر مـــنه الملك ومقته وطرده وأكرم العامريين وأدناهم ، قالوا : وكان هذا أول ما اشتهر به لبيد ، ثم أخذ يقول الشعر قصاره وطواله

حتي ظهر الإسلام فأقبل علي الرسول في وفد من قومه فأسلم وحفظ القـــرآن وهجــر الشعر حتي زعموا أنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتي لبست من الإسلام سربالا

ولذلك عد جاهلياً وإن عمر في الإسلام طويلا . ولما مصرت الكوفة ذهــب إلــيها فــي خلافة عمر وأقام بها حتي توفي في أول خلافة معاويـــة سنة ٤١هـــ وقد عاش كما قيل مائة وخمسة وأربعين سنة حتي قال بحق :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟[١]

– ومعلقة لبيد هي الرابعة في المعلقات ، ولم ينظمها لأمر أو لحادثة معيـــنة وإنمـــا نظمها بدافع نفسي ، فصور فيها أخلاقه ومآتيه كما صور الحياة البدوية الساذجة ، والبدوي الأبي النفس العالي الهمة .

بدأ لبيد معلقته بوصف الديار المقفرة والأطلال البالية وما فعلت فيها الأمطار فكان قوله :

عفت الديار محلها فمقامها بمني تأبد غولها فرجامهـــا

دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجاج خلون حلالها وحرامهـــا

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صما خوالد ما يبـــين كلامهـــا

---

(١) تاريخ الأدب العربي صـــ ٦٨ وما بعدها .

ثــم انـــتقل من الوقوف بالأطلال إلي الغزل وذكر محبوبته " نوار " وبعدها عنه فقال :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت   وتقطعت أسبابها ورمامهـــــا

مرية حلت بفــيد وجـــاورت   أهل الحجاز فأين منك مرامها

ثــم تخلص من الغزل إلي وصف ناقته فشبهها بسحابة حمراء خالية مـــن المـــاء تدفعها الريح فتنطلق بسرعة ، وبأتان " أنثي الحمار " وحـــشية نـــشيطة ، وببقرة افترس السبع ولدها ، كما صور العراك الذي وقع بينهما وبين الكلاب التي طاردتها تصويراً قصصيا جميلاً، ووصف ناقته هو أهم قسم في معلقته .

ثم تحول إلي وصف نفسه وما فيها من هدوء واضطراب ، ووصف لهــوه وشربه الخمر وبطشه وسرعة جواده وكرمه ، وانتهي بمدح قـــومه والفخـــر بكرمهم وأمانتهم فكان مجيداً في تشبيهاته القصصية صادقاً في عاطفته .

شعره

كـــان لبـــيد موسوماً بسمات منها رجاحة العقل ،ونبل النفس وكثرة المروءة ، كريماً جواداً ، وجاء شعر لبيد صورة صادقة لكل ما اتسم بـــه مـــن أخلاق فسالت أخلاقه وعواطفه في شعره ، وتمثلت معاني النبل والكرم في فخره .

فجاءت ألفاظه قوية منتقاة ، مضموماً بعضها إلي بعض بدقة وعناية لـــذا جـــاء أســـلوبه متيناً فخم العبارة ، قليل الحشو ، تزينه الحكمة العالية، والموعظة الحسنة والكلم النوابغ .

وذلك مثل قوله :

من معشر سنت لهم آباؤهـــــم ولكل قـــوم سنـــة وإمامهـــــا

لا يطبعون ولا يبور فعالهـــم إذ لا يميل مع الهوي أحلامهـــا

فاقنع بما قسم المليك فإنمـــا قسم الخلائق بيننـــا علامهـــا

وإذا الأمانة قسمت في معشـــر أوفي بأوفر حظنـــا قسامهـــا

فبني لنا بيتاً رفيعـــاً سمكـــه فسما إليه كهلهـــا وغلامهـــا

وهم السعاة إذا العشيرة أفظعت وهم فوارسها وهم حكامهـــا

وهم ربيع للمجاور فيهـــــم والمرملات إذا تطـــاول عامهـــا

وهم العشيرة أن يبطـــئ حاسد أو أن يميل مع العدو لئامهـــا

نجد الشاعر وقد ختم معلقته بفخره بقومه وبث الحكمة من حين إلي آخر كل ذلك في صدق وإخلاص وقصد .

(٥) عمرو بن كلثوم

هـــو أبو عباد عمرو بن كلثوم بن عتاب بن مالك التغلبي ، كان من أكثـــر العرب ترفعاً وإباء وعزة نفس ، لذا شب علي خلال العظماء وأخلاقهـــم يأبـــى الضيم والذل ، وما كاد يناهز الخامسة عشرة من عمره حتى ساد قومه وقاد قبيلته .

ومعلقته هي الخامسة في المعلقات ، أنشأ قسماً منها في حضرة الملك عمـــرو بن هند ، وعنده وفود من قبيلتي تغلب وبكر للصلح بعد ما قامت بينهما حروب البسوس حوالي أربعين سنة وكان والد عمر بن هـــند قد أصلح بين القبيلتين قبل ذلك ، ولكن خشي أن تعود الحرب بيـــنهما فأخـــذ والـــد عمرو من كل قبيلة مائة غلام رهائن حتى إذا اعـــتدت إحداهما علي الأخرى أخذ الدية من الرهائن ، وسار عمرو بن هند علي خطة أبيه في هذا الارتهان .

وذات يـــوم سير الملك ركباً من تغلب وبكر إلي جبال طيئ ، فأجلي البكـــريون التغلبيـــين عن الماء ودفعوهم إلي صحراء فـــتاهوا فيها وماتـــوا عطشاً ، فغضب بنو تغلب وطلبوا ديات أبنائهم ، فأبت قبيلة بكر دفع الدية ، فاحتكموا إلي عمرو بن هند , ولما كان يوم التقاضي انـــتدبت تغلب شعرها وسيدها عمرو بن كلثوم للدفاع عنها وانتدبت بكـــر أحـــد أشـــرافها (النعمان بن هرم) وكان عمرو بن هند يفضل

التغلبيين علي البكريين فوقع جدال بينه وبين النعمان غضب له الملك فطرد النعمان ، وأنشد عمرو بن كلثوم قسماً آخر من معلقته[1].

أمـــا القسم الآخر فقد زاده عليها بعد قتله لعمرو بن هند ، علي أثر محاولة أم الملك أن تستخدم ليلي أم عمرو بن كلثوم .

وذلك أن الملك قال لبعض خاصته : أتعلمون أحداً من العرب تأنف أمــه من خدمة أمي ؟ فقالوا لا نعلم إلا ليلي أم عمرو بن كلثوم فإن أباهـــا مهلهـــل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل ، وزوجها كلثوم بن عـــتاب فـــارس العـــرب وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه . فأرسل عمرو بن هند إلي عمرو بن كلثوم يطلب منه أن يأتي لزيارته ، وأن يـــصطحب أمـــه معـــه لتزور أمه ، فأقبل عمرو بن هند وأمه من الجزيرة في وفد من تغلب وأمر الملك برواق وخيمة كبيرة فضربت بين الحيرة والفرات وأرسل إلي وجوه مملكته فحضروا وكان عمرو ابـــن هند قد أغري أمه أن تستخدم ليلي بنت مهلهل في قضاء أمر ، فلمـــا دخلـــت عليها الرواق وجلست واطمأن بها المجلس قالت لها : ناوليني الطبق فأجابتها ليلي : لتقم صاحبة الحاجة إلي حاجتها ، فلما

---

[1] وقيل : إن الحارث بن حلزة شاعر بني بكر كان موجودا فقام وألقي معلقته المشهورة فعطف هوي الملك إلي قومه وكان يحب التغلبيين فانصرف عمرو بن كلثوم وهو موغر الصدر علي ابن هند .

ألحــت عليها صاحت ليلي : واذلاه فسمعها ولدها فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه .

ولمعلقــة عمــرو بن كلثوم قيمة تاريخية كبيرة فهي تدلنا علي حالة العــرب مــن حيث الدين والاجتماع والعادات والصناعات والألعاب فتخبــرنا عــن طــواف النساء حول الصنم وعن الرقص الديني ، ومــرافقة النــساء للــرجال في الحرب وعن لعب الصبيان بسيوف الخشب وقذف الكرة وغير ذلك من الفوائد التاريخية .

شعــــــره

شــعر عمــرو بــن كلــثوم قلــيل ولم يؤثر عنه إلا معلقته وبعض مقطوعات من الشعر لا تخرج عن موضوع المعلقة إلا أن ما روي عنه من شعر يغلب عليه غمر البديهة وقلة الصنعة رائق الأسلوب ، نبيل الغرض عذب السليقة .

ومعلقته مستهلة علي غير عادة العرب بذكر الخمر حيث يقول :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا	**ولا تبقي خمور الأندرينا**
مشعشعة كأن الحصي فيها	**إذا الماء خالطها سخينا**
تجور بذي اللبانة عن هواه	**إذا ما ذاقها حتى يلينــا**

ثم خلص إلي الغزل فقال :

قفي قبــل التفــرق يا ظعينــا	**نخــبرك اليقــين وتخبرنــا**

قفي نسألك هل أحدثت صرمــا لوشك البين أم خنت الأمينا

ثم يصف أمره مع عمرو بن هند وافتخاره بنفسه وقومه فيقول:

ألا لا يعلــم الأقــوام أنــا تضعضعنا وأنا قــد ونينـــا

ألا لا يجهــلن أحـــد علينا فنجهل فوق جهــل الجاهلينا

بأي مشيئة عمرو بـــن هند نكـــون لقيلكم فيهـــا قطينــا

بأي مشيئة عمرو بـــن هند تطيع بنا الوشاة وتـــزدرينا

تهددنا وأوعـــدنا رويــــدا متـــى كنـــا لأمـــك مقتوينا

فإن قناتنا يا عمـــرو أعيت علي الأعداء قبلك أن تلينـــا

ورثنا مجد علقمة بن سيف أباح لنا حصون المجد دينـــا

ورثت مهلهلا والخير منـــه زهيراً نعم ذخـــر الزاخرينـــا

وعتابـــا وكلثومـــا جميعـــا بهـــم نلنا تـــراث الأكرمينـــا

ومنا قبلـــه الساعي كلـــيب فأي المجـــد إلا قـــد ولينـــا

ونحن الحاكمـــون إذا أطعنا ونحن العازمون إذ عصينـــا

ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينـــا

وكنا الأيمنيـــن إذا التقينـــا وكان الأيسرين بنـــوا أبينـــا

ولقد اهتمت العرب بتلك المعلقة وتناقلتها الألسنة ، وأكثر بنو تغلب من إنشادها وراويتها حتى قال فيهم الشاعر :

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مذ كـــان أولهم   يا للرجال لشعر غير مسئوم

وكانت وفاة عمرو بن كلثوم في أواخر القرن السادس الميلادي .

(٦) عنــترة

هو عنترة بن عمرو بن شداد العبسي ، وكنيته أبو المغلس ، أبوه من أشــراف القبــيلة ولكن أمه كانت أمة حبشية تدعي زبيبة ، فهو من هجناء العرب وأغربتهم ، كان أبوه قد استعبده علي عادة العرب في اســتعباد أبــناء الإمــاء ، ولكنه نزع بنفسه عن حال العبودية وأخذ يروض نفسه علي الطراد والفروسية حتى أصبح مسعر حرب وقائد كتيــبة واتفق أن أغار قوم من العرب علي بني عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلهم فتبعهم العبسيون وعنترة معهم يومئذ ، فقال له أبوه : كــر يــا عنترة ، فأجابه : العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الحلب والصر ، فقال له : كر وأنت حر : فكر وقاتل قتالاً شديداً حتى هزم المغيــرين واســترجع الإبل ، فادعاه أبوه وألحقه بنسبه وعرف من يومها بعنترة بن شداد وأخذ اسمه منذ يومئذ يسير وذكره يطير حتى أصبح مضرب المثل في الإقدام والجرأة .

يقــول الــزيات : (وله في تعليل شهرته وشجاعته رأي حصيف لا بأس بذكره . قال له قائل : أنت أشجع الناس وأشدهم ، فقال له : لا . قــال : فلمــاذا شاع لك هذا بين الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل موضعا لا

أري لـــي مـــنه مخــرجا ، وكـــنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله) [١]

شعــــره

كـــان عنترة بطلا شجاعاً كبير النفس ، رقيق القلب ، رحب الصدر عفــيفاً وقــد أحب عبلة ابنة عمه مالك ، واستولي حبها علي قلبه ، وجـــاش الشعر في صدره ، فهاجت شاعريته ، واتسع خياله فجري الشعر علي لسانه في الحرب وفي الفخر ، وفي الحب ، فتجد لغزله حـــلاوة ، ولفخـــره مـــتانة ، ولألفاظه سهولة ، بالإضافة إلي حسن الانـــسجام ، ومـــتانة التعبير ، والموسيقي مما جعل العرب يسمون معلقته بالذهبية .

* وأشـــهر شعر عنترة معلقته وهي السادسة في المعلقات ، ولم يرو عنه في عبوديته شيئ من الشعر لا جيد ولا ردئ .

* قـــيل فـــي سبب نظمه لمعلقته : أنه كان في أحد الأيام في مجلس بعـــد أن كـــان قد أبلي في حروبه بلاء حسناً فشاتمه رجل من بني عـــبس ، وعيـــره بسواده وسواد أمه وأخوته ، وأنه لا يقول الشعر فسبه عنترة وفخر عليه وقال له :إني لأحضر البأس، وأوفي المغنم ، وأعـــف عند المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ..... فقال له الساب :

---

[١] تاريخ الأدب العربي صـــ٥٨

أنا أشعر منك فقال عنترة : ستعلم ذلك ، ثم غدا علي الناس بمذهبته المشهورة فقطع خصمه ونقض حكمه .

وانشأ معلقته فبدأ بذكر عبلة وبعد دارها فقال :

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هــل عــرفت الدار بعد توهم

يا دار عبلة بالجواء تكلمــي ... وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

فوقفت فيها ناقتــي وكأنهــا ... فدن لأقضــي حاجــة المتلــوم

وتحل عبلة بالجواء وأهلنــا ... بالحــزن فالصمان فالمتثــلـم

حييت من طلل تقادم عهــده ... أقوي وأقفر بعــد أم الهيثــم

ثــم ينــتقل من غزله بعبلة ومن وقوفه بالأطلال إلي وصف ناقته ، ووصــف نفسه بأنه لا يظلم ولا يجرؤ أحد علي ظلمه وبأنه يشرب الخمــر فــيكون كريماً شريفاً في شربه وصحوه ، ثم وصف بطشه وصور فرسه تصويراً جميلاً رفعة فيه إلي درجة الإنسانية فقــال :

لما رأيت القــوم أقبل جمعهــم ... يتذامرون كررت غير مذمــم

يدعون عنتــر والرماح كأنهــا ... أشطان بئر في لبان الأدهــم

ما زلت أرميهم بثغرة نحــره ... ولبانه حتي تســربل بالــدم

فازور من وقــع القنا بلبانــه ... وشكا إلي بعــبرة وتحمحــم

لوكان يدري ما المحاورة اشتكي ... ولكان لــو علم الكلام مكلمي

ولقد شفي نفسي وأذهب سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

ثــم يختم قصيدته بأن يشتفي لنفسه من الذين سبوه وشتموه وأنه ما مات حتي أخذ بثأره منهم فقال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة علي ابني ضمـــم

الشاتمي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لـــم القهما دمـــي

إن يفعلا فلقد تركت أباهمـــــا جزر السباع وكل نســـر قشعــم

عـــاش عنتـــرة قائداً لكتيبة عبس في حرب داحس والغبراء فأحسن القـــيادة وبلغ أوج السيادة ، ثم امتد به العمر حتي وهن عظمه ورق جلده ، وقتل حوالي سنة ٦١٥م .

(٧) الحارث بن حلزة

هــو أبــو الظليم الحارث بن ظليم بن حلزة اليشكري البكري ، كان شديد الفخر بقومه حتي ضرب به المثل فقيل : أفخر من الحارث بن حلزة وكانت مكانته في قبيلة بكر كمكانة عمرو بن كلثوم في تغلب ، ومعلقته ارتجلها دون إعداد مسبق ، في حضرة الملك عمرو بن هند حيــنما اجــتمعت بكر وتغلب عنده للصلح ، وأنشد الحارث معلقته ليــستدر بها عطف عمرو بن هند علي قبيلته " بكر " لأنه كان يعلم حــبه للتغلبيــين ، وبالفعل استطاع الحارث أن يثني الملك لصالحه بعدما أجاد في مدحه حتى استولي علي رأيه واستل من قلبه سخيمة غرسها تهور النعمان بن هرم زعيم قومه .

* ويقال أنه أنشدها وهو متكئ علي قوسه وقد اقتطعت كفه وهو لا يشعر من الغضب .

*ويقــول الزوزنــي شارح المعلقات السبع إنه (أنشدها في حضرة الملــك عمرو بن هند ، ورداً علي عمرو بن كلثوم وغضباً لقومه ، وكان عمرو بن كلثوم قد تجاوز الحد في فخره ولم يرع حرمه الملك فتــصدي لــه الحارث بمعلقته ، وكان قد أعدها ورواها جماعة من قــومه ، لينشدوها عنه لأنه كان به برص ، وكره أن ينشدها الملك من وراء سبعة ستور ثم يغسل أثره بالماء ، كما يفعل بسائر البرص ولما طرد الملك النعمان بن هرم شاعر البكريين لإساءته إليه ، خاف

الحـــارث علي قومه ، وقام ينشد بين يدي الملك من وراء الستور ، فأصـــلح ما أفسده النعمان ، وكان لقصيدته وقع حسن في نفس الملك حتـــي رفـــع الستور التي كانت بينهما وأدناه منه وأطعمه في جفنته وأمر ألا ينضح أثره بالماء) [١]

وقد عمر الحارث طويلاً حتي زعم الأصمعي أنه أنشد هذه القصيدة وله من العمر خمس وثلاثون ومائة .

شعـــره

دلـــت معلقـــة الحارث علي ما به من الدهاء ، فقد امتلأت القصيدة بالـــدهاء فـــي التعريض بالتغلبيين وسرد الحوادث التاريخية ، ومن الحكمـــة والـــرزانة مـــا يجعلها في مصاف الشعر الخطابي ، وهي أفضل مثال للشعر السياسي في العصر الجاهلي .

وقـــد بلغـــت معلقة الحارث من الإعجاب مكاناً بعيداً ، وذلك لإحكام نسجها ، وتشعب فنونها وارتجالها في موقف واحد .

وقـــد بـــدأ معلقـــته بالغـــزل إلي وصف ناقته ، علي عادة الشعراء الجاهلين فقال:

آذنتنا ببينهـــا أسمـــاء   رب ثاو يمل منه الثواء

بعد عهد لنا ببرقة شما   ء فأدني ديارها الخلصاء

---

(١) شرح المعلقات السبع / الزوزني صـــ ٢١٥ ط دار الجيل

ثم يتحول من الغزل إلي وصف ناقته ، علي عادة الشعراء أيضا في أنهم كانوا يصفون رواحلهم خلال رحلتهم إلي الممدوح فيقول :

غيرأني قـد أستعين علي الهـم إذا خف بالـثوي النجـاء

بزفوف كأنها هقل أمـ م رئـال دويـة سقفـاء

آنست نبأة وأفزعها القـ ناص عصراً وقد دنا الإمساء

فتري خلفها من الرجع والوقـ ع فينـا كـأنـه إهبـاء

ثـم عير التغلبين بالمواقع التي انتصروا عليهم فيها ، وأتي بعد ذلك علـي كثير من أيام العرب ، ثم مدح عمرو بن هند وافتخر بقومه ، وحسن بلائهم عنده ، فكان مما قال في ذلك :

ملك مقسط وأفضل من يمـ شي ومن دون ما لديه الثنـاء

ملك أضرع البرية لا يـو جد فيها لمـا لديـه كفـاء

أيها الناطـق المبلغ عنـا عند عمرو وهل لذاك انتهـاء

من لنا عنده من الخير آيـا ت ثلاث في كلهـن القضـاء

ويظـل يفخـر بقومه ، وبانتصاراتهم وبآبائهم وأجدادهم ، ثم يفخر بأبنائهم علي غير عادة العرب إلي أن يختم قصيدته بقوله:

وهو الرب والشهيد علي يـو م الحيزين والبلاء بلاء

المدرسة الثانية : مدرسة الشعراء الصعاليك

الصعاليك جمع صعلوك ، والصعلوك هو من لا مال له , بيد أن هذه اللفظة " الصعاليك " حينما تذكر في العصر الجاهلي فإنها لا تفق عند حدود معناها اللغوي ، بل تنصرف إلي مجموعة كبيرة من الشعراء عرفت بهذا الاسم.

وهؤلاء الشعراء الصعاليك خليط ممن لفظتهم قبائلهم وطردتهم لأنهم ارتكبوا من الجرائم والجنايات مالا يستحقون به شرف الانتساب إلي قبيلة بعينها , ومن الذين ولدوا لأمهات من الإماء الحبشيات السود ، فلم يعترف بهم آباؤهم لما في ذلك من العار لهم , ومن الذين احترفوا الصعلكة احترافاً لا لشئ مما سبق وإنما اتخذوا الصعلكة حرفة ومهنة.

أذن الصعاليك خليط من ثلاثة أجناس إلا أنهم اجتمعوا علي شئ واحد وهو الضيق بالفقر والرق والجوع والطبقية بين أغنياء القبيلة وفقرائها فثارت أنفسهم علي الأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة أنذاك ، واحترفوا الصعلكة واللصوصية.

والشعراء الصعاليك عرفوا بالقوة والشجاعة والصبر عند البأس والفتوة وسرعة العدو " الجري " حتي ضرب بهم المثل في ذلك , فاتخذوا من تلك الصفات السابقة ومن حقدهم علي الأغنياء طريقاً

للحصول علي كل ما أرادوا عن طريق البطش والقوة والسلب والنهب وكل ما حرموا منه.

ومن هؤلاء الشعراء : الشنفري ، وتأبط شراً , وعروة بن الورد العبسي، وسليك بن السلكة ، وحاجز الأزدي وغيرهم , وتسموا بأسماء أخري غير الصعاليك مثل العدائين ، أو ذؤبان العرب , أو اللصوص ، وذلك لما عرفوا به من سرعة الحركة والخفة وحسن ركوب الخيل والمعرفة بدروب الصحراء ، والإغارة علي القوافل التجارية , أو قوافل الحجيج المتجهة إلي مكة ، أو المناطق الخصبة.

ولهؤلاء الشعراء أشعار كثيرة منثورة في كتب الأدب وتروي لهم مغامرات مختلفة , وكثيراً وكانوا يتغنون بهذه المغامرات في أشعارهم ونراهم في أثناء ذلك يتمدحون بالكرم , وبالترفع والشعور بالكرامة والبر بالأقارب والأهل وكانت الصعلكة في نظرهم ليست عيباً , بل هي من دواعي فخرهم وأسباب أنفتهم وكأنهم أرادوا أن يقولوا نحن نصبر علي الجوع خير لنا من أن يكون لأحد يد علينا ، فإذا وجدوا الطعام آثروا به غيرهم من الأولاد والنساء وفي ذلك يقول شاعرهم :

وإني لأثوي الجوع حتي يملني   فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي

وأغتبق الماء القراح فأنتهي   إذا الزاد أمسي للمزلج ذا طعم[1]

---

[1] المزلج : البخيل .

أرد شجاع البطن قد تعلمينـــــه   وأوثر غيري من عيالك بالطعـــم

مخافة أن أحيا برغم ذلــــــة   وللموت خير من حياة علي رغـم

من الشعراء الصعاليك

١) الشنفري

هـــو ثابـــت بن أوس الأزدي ، من بني الإواس بن الحجر بن الأزد ولقب بالشنفري لغلظ شفتيه وتلك سمة أبناء الحبشيات وهـــو مـــــن " أغربة العرب " لأن أمه كانت أمة حبشية فورث منها الســـــواد.

عـــاش الشنفري لصاً صعلوكاً مهاب الجانب يخافه الناس ، وعاصر شـــاعرين مـــشهورين هما " تأبط شراً " و " أبو خراش الهذلي " ويقال أن الذي روضه علي الصعلكة وقطع الطرق تأبط شراً , فكان يغير معه ، حتي صار لا يوقف في وجهه ولا يقام لسبيله.

وتذكـــر الـــروايات أنـــه لم يعرف حياة الاستقرار والدعة والانتماء الاجتماعـــي ، لما أحاطت به من ظروف منذ نشأته أدت به إلي ذلك ومن ذلك ما تحدثنا به الروايات التي منها : أن أباه قتل بأيد من بني عمومته أي من بني سلامان بن مفرج الأزدي , ولم تجد أمه نصيراً يأخذ بثأره فانتقلت به إلي بني " فهم " قوم تأبط شراً وراح يعد نفسه للانتقام منهم فحلف أن يقتل منهم مائة , وأخذ يترصد بهم حتى قتل مـــنهم تـــسعة وتسعين ، ثم استطاعوا أن يصنعوا له كمين فوقع فيه فقـــتلوه ومثلوا بجسده وقطعوه ورموه للسباع , ويقال إن رجلاً وجد جمجمـــته فـــركلها بقدمه فعقرته " أي دخلت شظية منها في قدمه " فمات فتم بذلك المائة.

وتـــروي روايات أخري غير ذلك فتقول : إنه تزوج امرأة من بني سـلامان فخاف أبوها أن يقتله قومه لأنه زوج ابنته للشنفري فأقسم لهـا ولـه إن قـتلوه ليقتلن منهم به مائة , فلما قتل بنو سلامان أبا زوجته استنجزته زوجته وحثته علي الوفاء بوعده والبر بقسمه فظل يقـتل منهم حتي تسعة وتسعين وقيل مائة. ولقد حظي الشنفري من بين الصعاليك بمكانة كبيرة , فقد جمع صفات الصعلكة بدرجة تفوق بها عليهم جميعاً مما جعل مكانه بينهم بارزاً وظل تاريخه فيما ولي المجتمع الجاهلي من مجتمعات وعصور.

وللشنفري شعر كثير في الغزل والفخر والعدو والفتك ، وفي الحكمة والعفـة وغيرها من الموضوعات التي تتجاوب أصداؤها مع حياته في الإغارة والصعلكة. ولكن من أكثر أشعاره شهرة قصيدته " لامية العرب " والتي بدأها بقوله :

أقيموا بني أمي صـدور مطيـكـم

فإني إلي قوم سواكم لأميــل

فقد حـمت الحاجات واللـيل مقمـر

وشدت لطيات مطايا وأرحـل

وفي الأرض منأى للكريم عـن الأذى

وفيها لمن خاف القلـي متعزل

لعمرك ما في الأرض ضيق علي امرئ

سري راغبا أو راهبا وهو يعقل

ولهـــذه القصيدة أهمية كبيرة حيث إنها تسجل حياة وتاريخ طائفة من العرب وليست هناك قصيدة في الشعر العربي تنافسها في موضوعها وفي مقدرتها علي تصوير لون من الحياة العربية هي"حياة الصعلكة" ومممـــا يقـــال إن اللامية تعرضت في القديم لمحاولات تشبه السطو، ولكـــنها لم تنجح وظل المجتمع يعرف القصيدة للشنفري ولا يرتاب في ذلك.

والـــشنفري مـــثال للـــشاعر الواقعي الذي يعيش علي الفطرة ويمثل الـــبداوة ويألـــف الغابـــات, ويعايش السباع والضواري فيأتي شعره صورة لحياته كقوله مخاطباً أهله يخبرهم بأنه اتخذ أهلاً غيرهم ، بيد أن أهله الجدد هم من السباع كالذئاب والنمور والضباع :

ولي دونكم أهلون سيد عملـــس وأرقط زهلول وعرفاء جيـــال

هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخـذل

وكل أبي باسل غير أنتنـــي إذا عرضت أولي الطرائد أبسـل

وإن مدت الأيدي إلي الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجـل

والشنفري علي خشونته شاعر صادق التعبير, دقيق التصوير, خشن الألفاظ والمعاني.

(٢) تـأبـط شـرا

وهــو ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي " من قبيلة فهم " وهي إحدى القبائل المضرية , وهو من " أغربة العرب " لأنه كان ابن أمة سوداء حبــشية , وقــيل إن أمـــه كانت حره وتسمي " أميمة " وعرف هذا الشاعر بعدوه " سرعة جريه " وفتكه ولصوصيته .

(واخـــتلف القدماء في تعليل لقبه " تأبط شرا " فقيل لقبته به أمه إذ تـــأبط سيفاً وخرج فلما سئلت عنه قالت : تأبط شراً ومضي لوجهه، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جراباً مليئاً بالأفاعي ، وربما كانت قبيلته هي التي لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنايات وجرائر، أي إنه يحمل دائما في أطوائه شراً يريد أن ينفذه، ويظهــر أن أبـــاه مات وهو صغير فتزوجت أمه بأبي كبير الهذلي، وكـــان صـــعلوكاً كبيـــراً ، فخرجه علي شاكلته، وربما كان لسواده وتعييـــر عـــشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر في تصعلكه وكان يرافق الشنفري في كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمي عمرو بن براق) [١]

ولهـــذا الـــشاعر أشـــعار كثيرة في كتب الأدب كالأغاني ، والشعر والـــشعراء وشرح شواهد المغني ، وخزانة الأدب ، إلا أنه ليس له

---
[١] العصر الجاهلي / شوقي ضيف صـــ ٣٧٧ .

ديـــوان شعر مطبوع ، ومن شعره الذي يرسم فيه صورة الصعلوك من أمثاله الذي يقدره ويجله:

لكنما عولي إن كنت ذا عــول　　　علي بصير بكســب الحمد سبــاق

سباق غايات مجد في عشيرته　　　فرجع الصوت هـــداً بين إرفــاق

حمال ألوية شهاد أنـديـــة　　　قوال محكمــة جــواب آفـــاق

فذاك همي وغزوي أستغيث به　　　إذا استغـثن بضافي الـرأس نعــاق

ومن شعره الحكمي قوله :

إذا المرء لم يحتل وقد َجــد جده

أضاع وقاسي أمره وهو مدبــر

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا

به الخطب إلا وهو للقصد مبصر

وشعره فيه سذاجة البدوي وفطرته، وتبدو فيه بعض خشونة المعاني والمباني " الألفاظ " كسابقه الشنفري.

(٣) عروه بن الورد

هــو عــروة بن الورد بن زيد العبسي ، شاعر جاهلي وفارس من فرســان بني عبس احترف الصعلكة واتخذها باباً من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي بينه وبين أفراد قبيلته وضعفائها ومن أجل ذلك لقــب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم , وهو من أشرف الصعاليك لأنه لم يغز للسلب والنهب كسابقيه الشنفري وتأبط شــراً، وإنمــا كانــت صــعلكته وكــان غزوه من أجل الفقراء والمرضي والضعفاء من قبيلته يقول د/شوقي ضيف نقلا عن كتاب الأغانــي :

(كــان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة " أزمة جدب " شديدة وتركوا في ديارهم المريض والكبير والضعيف ، يجمع أشباه هؤلاء مــن دون الــناس مــن عشيرته في الشدة ثم يحضر لهم الأسراب، ويكــنف عليهم الكنف (الحظائر) ويكسبهم . ومن قوي منهم – إما مــريض يبــرأ مــن مرضه أو ضعيف تثوب قوته – خرج به معه فأغــار وجعــل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً ، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنــيمة كانــوا اغتنموها , فربما أتي الإنسان منهم أهله وقد استغني فلذلك سمي عروة الصعاليك) [١]

---

[١] العصر الجاهلي صـــ ٣٨٣ , الأغاني جـ٣ صـــ ٧٨

وكثيـــراً ما تترد في أشعاره المعاني الكريمة ، والأخلاق النبيلة التي إذا سمعها من يعرف لتلك المعاني والأخلاق حقها لا يملك أن يعجب بـــه أشد الإعجاب وسرعان ما تتحول الصعلكة في ذهنه إلي معني قريب من الفروسية والمروءة وذلك مثل قوله :

إني امرؤ عافي إنائي شركـــة وأنت امرؤ عافـــي إنائك واحـــــد

أتهزأ مني أن سمنت وأن تري بجسمي شحوب الحق , والحق جاهد

أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحســو قراح الماء والمــاء بـــارد

إنه يقسم طعامه بين الفقراء وذوي الحاجة علي حين لا يشركك أحد في إنائك ولذلك سمنت أما أنا فصرت نحيلاً شاحب اللون .

هذه المعاني والأخلاق جعلت معاوية يقرأ شعره في العصر الأموي ويقول: (لو كان لعروة بن الورد ولد لأجبت أن أتزوج إليهم)

وأيضاً هذه المعاني والأخلاق جعلت عبد الملك بن مروان يقول :

(مـــن زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد) وكان يقول أيضاً (ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عـــروة بن الورد أي لو تمنيت أن يكون لي أب غير أبي لتمنيت أن يكون هو عروة بن الورد .

ومن أشعاره التي تجسد تلك الأخلاق والمعاني أيضاً :

قلت لقومي في الكنيف تروحوا عشية بتنا عند ماوان رزح [١]

تنالوا الغني أو تبلغوا بنفوسكم إلي مستراح من حمام مبرح

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو يصيب رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

والحقيقة أن عروة في عاطفته وغاياته وأخلاقه وشرفه قد استطاع أن يغير مفهوم الصعلكة ويجعلها نوعاً من المروءة بكل ما تحمله الكلمة من معان ، لأنه بكل بساطة استطاع أن يحقق فكرة التضامن الاجتماعي , أو ما نسميه نحن بالمفهوم العصري (الاشتراكية) وهي الفكرة القائمة علي الإيثار ومساعدة الغير وبخاصة المعوزين وذوي البؤس والشقاء والمحرومين .

---

[١] ماوان : اسم ماء رزح : مهازيل ضعفاء

المدرسة الثالثة : مدرسة عبيد الشعر

الشعر لغة الحياة ، وترجمان الحضارة ، وصوت الإنسان المعبر عن آماله وآلامه في كل عصر من العصور وعلي كافة المستويات .

وقــد كان للشعر دور عظيم في تسجيل مآثر العرب وحياتهم ورصد عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم قبل ظهور الإسلام .

– وأمـــام هذه المنزلة العالية للشعر والشعراء لم يملك التاريخ إلا أن يـــسجل من صنوف هذا الفن وألوانه ما ليس له نظير في حياة غير العرب من الأمم .

ومن دلائل عظم الشعر عند العرب ، وجليل خطبه في قلوبهم أنه لما بعث النبي (صلي الله عليه وسلم) بالقرآن المحكم المعجز ، أعجب قــريش مـــا سمعوا منه وقالوا ما هذا إلا سحر ، وقالوا في النبي : شاعر نتربص به ريب المنون .

وقــد أدرك نقاد العرب أن الشاعر إنسان غير عادي يمتاز بأمرين :

أولـهمـــا : الفطـــنة والذكاء والتنبه للمعاني التي لا ينتبه إليها سواه .

وثانـــيهما : مقدرتـــه علـــى أن يصف ما فطن إليه ، وأن يبين عن شـــعوره في عبارة واضحة ، وهذا ما عناه صاحب نقد النثر عندما قـــال : (والشاعر من شعر يشعر شعراً ..... وإنما سمى شاعراً ،

لأنـــه يـــشعر مـــن معانـــي القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره)[١] .

ومـــن هنا ندرك أن النقد قد وضع الشعر في مرتبة رفيعة ، فكانت القبـــيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمـــة ، واجـــتمع النـــساء يلعـــبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، ودفاع عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج.

لهذه المنزلة للشعر وللشعراء نجد أن مجموعة من الشعراء قد بالغوا فـــي تجويد قصائدهم وتحبيرها إلي حد كبير حتي إن بعض القصائد كانـــت تظل عند أصحابها من الشعراء حولاً كاملاً ليغير فيها وينقح ويراجع حتي يصل بها إلي درجة عالية من الإتقان والجودة عرفت هذه القصائد بـــ " الحوليات "

– ومـــن هنا جاءت فكرة أو تسمية " عبيد الشعر " ، والذين أطلقوا هـــذه التـــسمية " عبيد الشعر " هم النقاد لأنهم شبهوا الشعراء الذين ينـــشئون القـــصائد ثـــم يراجعونها ويغيرون فيها حولا كاملاً بأنهم يتعـــبدون لهذه الأشعار فيظلون في خدمتها عاماً تاماً . فكأنهم بذلك رقيق عندها وخدم لها .

---

(١) نقد النثر صـــ٧٧

- مــن الشعراء الذين أطلقت عليهم هذه التسمية في العصر الجاهلي زهير ، والنابغة ، والحطيئة ، والنمر بن تولب ، وطفيل، يقول ابن رشيق : (وكان الأصمعي يقول : زهير والنابغة من عبيد الشعر ، يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به حواسهما وخواطرهما .
ومن أصحابهما في التنقيح وفي التثقيف والتحكيك طفيل الغنوي وقد قيل : إن زهيراً روي له ، وكان يسمي " محبرا " لحسن شعره . ومنهم الحطيئة ، والنمر بن تولب ، وكان يسميه أبو عمرو بن العلاء الكــيس ، وكــان بعض الحذاق بالكلام والماهرين به يقول : قل من الــشعر مــا يخدمك ، ولا تقل منه ما تخدمه ، وهذا هو معني قول الأصمعي) [1]

وربمــا كان دافع الشعراء إلي التحبير والتحكيك والمراجعة والإجادة هــو أن ينالوا رضا الممدوحين وعطاياهم ، لذا لجأ هؤلاء الشعراء إلــي شــحذ همــتهم ، وصقل أذهانهم ، وتهذيب بيانهم ، ومراجعة أفكــارهم ، هــذا كله عاد علي الشعر عامة ، وشعر المديح خاصة بالجــودة والإتقان والتنقيح وخلوه من العيب إلا أنه في الوقت نفسه أصاب الشعر بكثير من التكلف والصنعة والافتعال ، كما أنه حط من قدر الشاعر لأنه تكسب به وجعله وسيلة للاستجداء وطلب الهبات .

---

[1] العمدة جــ١ صــ١٣٣ بتصرف

ولهذا عاب بعض الشعراء هذه الطريق من التكلف والصنعة للأشعار وقال يكفيك من القول ما تصيب به غرضك فقال :

من القول ما يكفي المصيب قليله ... ومنه الذي لا يكفي الدهر قائلـــه

يصد عن المعني فيترك ماتحـــــاً ... ويذهب في التقصير منه يطاوله

فلا تك مكثاراً تزيد علي الـــــذي ... عنيت به في خطب أمر تزاولـــه

ومـــع أن بعض النقاد قد عاب تلك الطريقة من خدمة الشعر وشحذ القريحة له وتعاطيه عن قصد لا عن طبع ، إلا أننا وجدنا في العصر الإسلامي من الشعراء من سلك هذه السبيل فجعل يتعب نفسه وعقله وخاطـــره في قول معني معين قاله شاعر آخر ، ومن هنا جاءت ما يسمي بـــ " السرقات الأدبية " أو التقليد ، أو التضمين أو المعارضة ...... إلخ ، وكان من الشعراء الإسلاميين الذين سلكوا هذا المسلك ، أبو نواس (الحسن بن هانئ) وأبو تمام الطائي (حبيب بن أوس) وغيرهما .

المدرسة الرابعة مدرسة شعراء المقري الحربية
(مكة - المدينة - الطائف)

- **مكـــة** " البلد الحرام " هي واد من أودية جبال السراة ، وتقع بين اليمن والشام لذا كانت ممسكة بزمام التجارة وقوافلها في العصر الجاهلي فصارت ملتقي القوافل ، ومهجر القبائل مع أنها جبال جرداء من كل جانب ، وقد وصفها الله في قرآنه بأنها (واد غير ذي زرع) إلا أن بها بيت الله الحرام الذي كانت تعظمه كل القبائل الجاهلية وتضع حوله أصنامها وتطوف به وبها ، وزادها تعظيما وتقديساً في نفوس العرب فشل الحملة التي قادها أبرهة الحبشي والي الحبشة علي اليمن حينما حاول أن يستولي عليها سنه ٦٧٠ أو ٦٧١م ومنذ ذلك الحين أصبحت مكة رمزاً لاستقلال العرب وعزتهم وقوتهم وذلك لأنها لم تكن تحت إمرة أي ملك أجنبي .

- وكان أهل مكة أشرف العرب ، وكانت كثير من القبائل تعترف لهم بالسيادة وذلك لأنهم كانوا يرعون الكعبة ويخدمون البيت وما حوله من أصنام وأوثان ، كما كانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تنزل بها . هذا كله يؤكد مكانتها وزعامتها علي العرب فهي بيت كعبتهم المقدسة وبيت تجارتهم ، وبيت أسواقهم سواء التجارية أو الأدبية " عكاظ " ومجنة ، وذي المجاز " لذلك عظم شأنها في الجاهلية ، ومع ما كان للمناذرة والغساسنة ولكسري وغيرهم من الملوك والأمراء من مكانة فإن كثير من العرب كان يري سادة

قريش فوق هؤلاء جميعاً ؛ بهذا كله كانت مكة أهم مدينة عربية في الجاهلية إذ كانت مثابة للناس وأمنا حيث تتمتع فيها القبائل والعشائر بالحرية التامة وتسير شئونهم حسب قوانين العرف والعادة .

أما **الطائف** فقد كانت تقع في الجنوب الشرقي لمكة ، ولكنها تختلف عنها اختلافاً كليا من حيث الزراعة والثمار والكلأ ، فقد كانت مليئة بالـرياض والبـساتين التي جعلتها أشبه ما تكون بقطعة من رياض الـشام ، وكانت مشهورة بطيب الهواء ، والخمر الصافية . وكانت تقطنها قبائل ثقيف الوثنية التي استقرت فيها كما استقرت قريش في مكة .

وأمـا **المديـنة** " **يثرب** " فتقع شمالي مكة ، في واد خصب تحيطة المـرتفعات ، وتكثر بها العيون والآبار وتكسوه الأشجار والزروع والنخـيل ، مـع الجو المعتدل فأصبحت كواحة جميلة وكان يقطنها الـيهود ، وظلـوا مسيطرين عليها فترة طويلة إلي أن جاءت قبائل الأوس والخـزرج مـن الجنوب فأصبحوا هم سادة المدينة مع أنهم وثنـيون ، وكانت حياتهم لا تختلف عن حياة البدو في شئ ، وكان اليهود يعملون علي الوقيعة ونشر العداوة بينهم حتي يشغلوهم عنهم ، وكانـوا يـصنعون لهم السلاح الذي يتقاتلون به وكانت هناك قري خاصة لليهود في يثرب منها خيبر وتيماء وفدك ، وما زالوا بها حتي أخرجهم عمر بن الخطاب من الجزيرة فأصبحت عربية خالصة .

وكـــان من أشهر شعراء القري : أمية بن أبي الصلت ، السموأل ابن عادياء ، وأخوه شعية بن عادياء .

من شعراء القري

(١) السموأل بن عادياء

هـــو أبـــو شـــريح السموأل بن عادياء ، من يهود يثرب ، وكان شاعراً فصيحاً مقداماً جواداً عالي الهمة ، سريع النجدة ، شريف القـــول والفعل وهو صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتيماء بين الحجـــاز والـــشام ، وكانـــت العرب تنزل فيه فيضيفها ، وكانوا يقيمون هناك سوقاً ومن قوله في حصنه :

بني لي عاديا حصناً منيعـــاً وماء كلما شئت استقـــيـــت

وأوصي عاديا يوما بأن لا تهدم يا سموأل ما بنيـــت

وحـــدث أن نزل امرؤ القيس علي السموأل ، وكان قاصداً قيصر في القسطنطينية ، فأودع امرؤ القيس عند السموأل دروعاً كانت ملـــوك كـــندة يتوارثونها ملك عن ملك ، ورحل امرؤ القيس في وجهته وجاء الحارث بن أبي شمر الغساني من قبل المنذر ليأخذ مـــن السموأل ما أودعه امرؤ القيس من مال ودروع ، فتحصن الـــسموأل منه ، وأبي أن يسلم الدروع ، فقبض الحارث علي ابن للسموأل كان قد خرج إلي الصيد ، ونادي بالسموأل أتعرف هذا : قـــال : نعـــم هـــذا ابني ، قال : أتسلم ما عندك أم أقتله ، قال له

السموأل : شأنك به فلست أخفر في ذمتي ، فضرب الحارث وسط الغلام فقطعه شطرين وانصرف ، فقال السموأل :

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما ذم أقوام وفيت

فضرب به المثل في الوفاء ، ومن شعره الدال علي كرم خلقه ومروءته وشهامته قوله مفتخرا :

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل علي النفس ضيمها
فليس إلي حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثري وسحابه
إلي النجم فرع لا ينال طويل
يقرب حب الموت آجال لنا
وتكرهه آجالهم فتطول

تسيل علي حد الظبـــات نفوسنـــــــــا

وليست علي غير الظبات تسيل

وننكر إن شئنا علي الـــناس قولهــــم

ولا ينكرون القول حين نقــول

وأسيافنا في كـــل شـــــرق ومغـــــرب

بها من صراع الدارعين فلـــول

سلي إن جهلـــت الناس عنا وعنهـــم

فليس سواء علم وجهــــــول

(٢) أمية بن أبي الصلت

هـــو أبو عثمان أمية بن أبي الصلت الثقفي ، كان تاجراً يمارس الـــتجارة طوال عمره ، وكان مفطوراً علي التدين ، وفي بعض أســـفاره التقي ببعض القسيسين والرهبان فسمع شيئاً من الأسفار الأولي فالتمس الدين ، ولبس المسوح ، وحرم الخمر ، وشك في الأوثان ، وطمع في النبوة ، وقال في دين إبراهيم :

كل دين يوم القيامة عند اللـــــه إلا دين الحنيفـــة زور

أي كـــل الأديان زور عند الله إلا دين الحنيفية وهي دين إبراهيم عليه السلام .

فلما بعث الرسول " صلي الله عليه وسلم " بهت الرجل وسقط في يـــده ، وكفر بالنبي حسداً وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه فنزل فـــيه قـــول الله تعالي : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) .

ثـــم أخذ يحرض علي الرسول ، فنهي الرسول عن رواية شعره فـــي ذلـــك وكان الرسول إذا سمع شعره في التوحيد يقول : آمن لـــسانه وكفـــر قلبه ، ثم فر أمية بابنته إلي أقصي اليمن ، وهناك وافـــته المنـــية ، وقد قال لما أخذته غشية الموت وأفاق منهما : لبيكما لبيكما! هأنذا لديكما ، لا مال يفديني ، ولا عشيرة تنجيني !

إن تغفر اللهم تغفر جما ، وأي عبد لك إلا ألما ؟ ثم أقبل علي من حضر وقال :

كل عيش وإن تطاول دهـــــــــراً

منتهــــي أمره إلـــي أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لــــــي

في رؤوس الجبال أرعي الوعولا

اجعل الموت نصب عينيك واحذر

غولــــة الدهر إن للدهــر غولا

شعــره

اشـــتهر أمـــية بـــن أبـــي الصلت بالشعر ذي المعاني الدينية ، فانــصرفت إليها قريحته واصطبغ بها شعره ، فقد وصف الله ، وذكـــر الحـــشر وأهواله ووصف الجنة والنار والملائكة ، ونظم حوادث التوراة كقصة إسحاق وإبراهيم ، وأدخل في الشعر معاني وأساليب وألفاظ ، وتراكيب لم يألفها الشعراء ، ولم يعرفها العرب بعــضها من العبرية وبعضها من محدثاته ، فكان يسمي الله عز وجـــل بالـــسلطيط ، والتغـــرور ، ويـــسمي السماء بالصاقورة والحاقورة ، ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه يوم الخسوف اسمه الساهـــور ، ولذلك كان اللغويون لا يحتجون بشعره .

ومن شعره يعاتب ابنا له كان قد عقه :

غذوتك مولودا ومنتــك يافعــا
تعــــل بما أجني عليك وتنهل

إذا ليلة نابتك بالشجو لم أبــت
لشكــــواك إلا ساهرا أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي
طرقت به دوني ، فعيني تهمل

تخاف الردي نفسي عليك وإنني
لأعلـــم أن الموت حتم مؤجل

لما بلغت السن والغاية التـــي
إليهــا مدي ما كنت فيك أؤمل

جعلت جزائي غلظة وفظاظـــة
كأنـــك أنت المنعم المتفضل

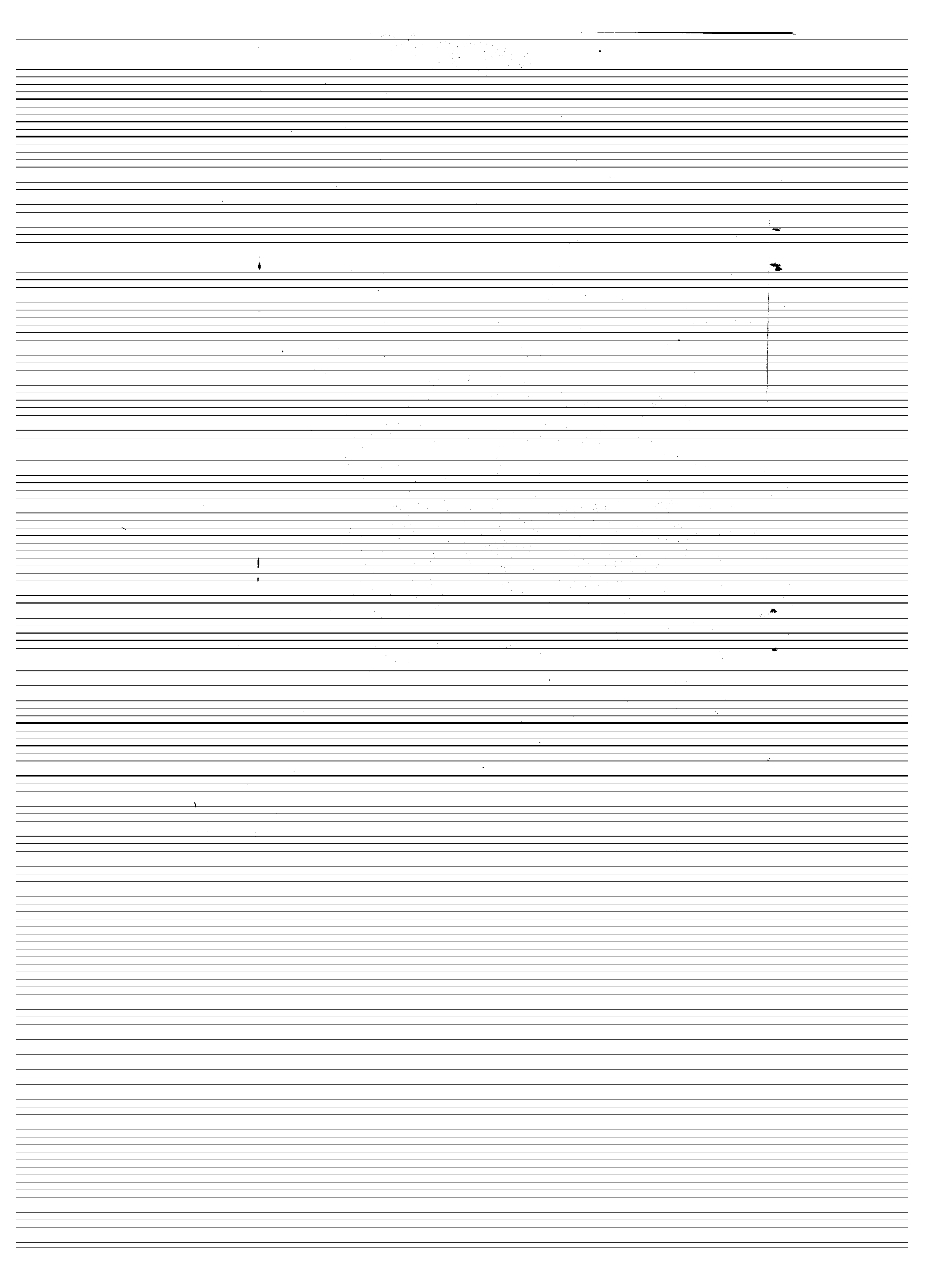
ومن قوله :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا	**بالحمد صبحنــا ربــي ومسانا**
رب الحنيفية لم تنفد خزائنه	**مملوءة ، طبق الآفاق سلطانــا**
ألا نبي لنا منــا فيخبرنـــا	**ما بعد غايتنا من رأس محيانا**
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا	**أن سوف يلحق أخرانا بأولانــا**

الباب الثالث

النثر الجاهلي

- النثر الفني ، خصائصه
- خلاف النقاد العرب والمستشرقين في بدء ظهوره



النثر الجاهلي

النثـــر هـــو الكـــلام الذي لم ينظم في أوزان وقوافي و النثر العربي **نوعان : نثر عادي , و نثر فني .**

فالنثر العادي هو ذلك اللون الذي يقال في لغة التخاطب اليومية بين الناس في حياتهم العادية , وليس لهذا اللون قيمة أدبية لأن المتحدث بـــه لا يولـــيه عناية بالألفاظ أو انتقاء للكلمات مما يجعله غير مثير للانتباه وغير مسترع للأسماع .

أمـــا النوع الثاني وهو **النثر الفني** فهو ذلك اللون الأدبي البعيد عن الوزن والقافية المعتمد علي حسن الصياغة وانتقاء الألفاظ وخصوبة الخـــيال بما يجعله مؤثراً في النفوس مثيراً للانتباه محركاً للمشاعر موقظاً للأحاسيس آسراً للأفئدة .

- وهـــذا النوع من النثر يتفرع إلى فرعين كبيرين هما : الخطابة والكتابة الفنية ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفني وهي تشمل القـــصص المكـــتوبة كما تشمل الرسائل الأدبية المجودة ، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة[١] .

ويشمل هذا النوع أيضاً مجموعة من الفنون التي راجت في العصر الجاهلي وهي الخطابة ، والحكم ، والأمثال ، والوصايا والمحاورات والقصص ، وسجع الكهان ، والمنافرات .

---

[١] الفن ومذاهبه في النثر العربي د/شوقي ضيف صـــ١٢ـــ دار المعارف

الخطابــة

وهي من ألوان النثر ، عمادها اللسان ، كما أن الكتابة عمادها القلم ، وتعــرف الخطابــة بأنهــا : فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة .

وقــد انتــشرت الخطابة وصار لها في العصر الجاهلي شأن عظيم وذلــك لأنهم استخدموها في التحكيم بين الخصومات وإصلاح ذات البــين وتحمــل الــدماء ، وفــي المنافرات والمناظرات بالأحساب والأنساب والمناقب والمآثر والدعوة إلى الحرب وسفك الدماء ، وفي مناسبتهم الاجتماعية المختلفة كالزواج والإصهار.

وقــد اتخــذوا من الأسواق والمحافل العظام ومن مضارب خيامهم ووفــادتهم على الملوك والأمراء ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم في المقال ونسج الكلام .

ومــع أن العرب أمة أمية ، ولم تكن أمة كاتبة حتى تعبر عما تريد بــالقلم ، وتــودع مكنون صدورها صفحات الكتب – إلا أنهم كانوا يدركــون قــيمة اللفــظ ، ووزن العــبارة ، فالكلمة البليغة تقيمهم ، والعبارة الرقيقة تقعدهم ، كما أن البيت في الشعر يرفع شأن قبيلة ، ويحط من قدر أخرى ، حيث كان للكلمة الرائعة أثر بالغ في نفوسهم فهي تفعل في النفوس فعل السحر .

– ومعلوم أن الخطابة إنما تقوى وتزدهر وتنهض وتنشط في ظلال الحرية وكنفها حيث تستطيع الناس عامة والخطباء خاصة أن يعبروا عــن آمالهم ومشاعرهم وأفكارهم ، ففي ظلال الحرية تتقارع الآراء وتتــصارع الأفكــار ، وتتنازع المبادئ ، وتتنافس المذاهب وتتعدد الخصومات ، وفي ذلك كله الغذاء للخطابة والمداد لها والداعي إليها والجاهليون لم يكن ينقصهم شيء من الحرية فقد كان إقليمهم طليقا ، كــل شيء فيه يحيا حراً على الفطرة ، فعاشوا ككل من حولهم ، لا يقيدهم قيد ، ولا يدينون لحاكم , ولا يخضعون لقانون .

وكــان مما أعانهم على الخطابة وأسعفهم عليها ، ملكاتهم البيانية ، ومــا فطروا عليه من خلابة ولسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، وفــي ذلــك يقــول الجــاحظ : (وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجــال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكــرة ، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام , أو حين يمتح على رأس بئر , أو يحدو ببعير أو عــند المقارعة أو المناقلة أو عند الصراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يــصرف وهمــه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتــيه المعانــي إرسالاً " أفواجا " وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ......

وكــان الكــلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه اقدر وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلم

أوجـــد ، والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر .... من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب)[١].

وهناك دلائل مختلفة تدل على أن منزلة الخطيب في الجاهلية كانت فـــوق منـــزلة الشاعر ، يروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : (وكـــان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الـــشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومـــن غـــزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر)[٢] .

– وقد اتسعت في هذا العصر وظيفة الخطيب إذا كان يفاخر وينافر عـــن قـــومه فيـــشترك بذلك مع الشاعر ، كما كان يشترك معه في الحض على القتال ، ثم ينفرد بمواقف خاصة كالوفادة على الملوك ، والنـــصح والإرشاد ، وخطبهم في الإملاك والزواج مشهورة ، ومن أهم المواقف التي كان يتفرد بها الخطيب : (أنه كان يدعو إلى السلم وأن تـــضع الحرب بين القبائل والمتخاصمين أوزارها ، أما الشاعر فلم يكن يدعو إلا إلى الأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب)[٣] .

---

[١] البيان والتبيين / جـ٣ صـ١٨ دار المعارف – بيروت

[٢] السابق جـ١ صـ١٦٦

[٣] الفن ومذاهبه في النثر العربي / شوقي ضيف صـ٢٩ـ ط١١ دار المعارف

ولعل ذلك هو ما جعل ربيعة بن مقروم الضبي يقول :

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة   خطباؤنا بين العشيرة يفصل

- وقد تحدث الشعراء كثيراً عن الخطباء ومكانتهم بين قومهم، ومنزلتهم الرفيعة التي تبؤوها ومن ذلك قول عامر المحاربي :

أولئك قومي إن يلذ ببيوتهم   أخو حدث يوماً فلن يتهضما

وكم فيهم من سيد ذي مهابة   يهاب إذا ما رائد الحرب أضرما

وهم يدعمون القول في كل موطن   بكل خطيب يترك القوم كظما

يقوم فلا يعيا الكلام خطيبنا   إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما[1]

ولأن الخطابة تعتمد على اللسان ، وسرعة البيان فقد مجد العرب الخطابة المرتجلة التي يلقيها صاحبها مناسبة للمقام الذي يجد الخطيب نفسه فيه ، على عكس الكاتب البليغ صاحب القلم ، إذ هو في فسحة من الوقت ، يستطيع أن يغير ويبدل ، ويضيف ويحذف ، أما الخطيب البليغ صاحب اللسان ، فعليه أن يأتي في الوقت القصير من ترتيب الكلمات واختيار أسهلها وأعذبها وما يكون بينها وبين غيرها من الكلمات من مشاكلة ومزاوجة وغير ذلك ، ما يحتاج إلى وقت طويل وتفكير عميق .

وقد سأل أبو حيان التوحيدي أبا على بن مسكوية في أمر بلاغة اللسان وبلاغة القلم ، وكون الأولى أعسر من الثانية ، قال : لم

---

[1] الجبس : اللئيم المنقطع .

صـــارت بلاغة اللسان أعسر من بلاغة القلم ، وما القلم واللسان إلا آلـــتان ، وما مستقاهما إلا واحد ، والذي يدلك على قلة بلاغة اللسان إكبار الناس البليغ باللسان ، أكثر من إكبارهم البليغ بالقلم .

فأجابـــه أبو على : ذاك لأن البلاغة التي تكون بالقلم تكون مع روية وفكـــرة , وزمـــان متـــسع للانتقاء والتخير ، والضرب والإلحاق ، وإجالـــة الـــروية لإبدال الكلمة بالكلمة ...... فأما البليغ باللسان فهو حاضر الذهن ، سريع حركة اللسان بالألفاظ التي لا يقتصر فيها أن يـــبلغ مـــا في نفسه من المعنى حتى تتفرع له قطعة من ذلك الزمان الـــسريع إلـــى توشيح عبارته وترتيبها باختيار الاعذاب فالاعذاب ، وطلب المشاكلة والموازنة ، والسجع ، وكثير ما يحتاج في مثله إلى الزمان الكثير ، والفكر الطويل .

<u>أسلوب الخطابة في الجاهلية</u>

أمـــا أسلوب الخطابة في الجاهلية ، فكان رائع اللفظ خلاب العبارة ، واضـــح المـــنهج قـــصير السجع ، كثير الأمثال ، وذلك لأن خطباء الجاهلـــية كانوا ينتقون الألفاظ ويتحيرون المعاني ، فجاءت ألفاظهم غاية في الرقة والعذوبة والمعاني رائعة مألوفة .

يقـــول الـــزيات : (وقد امتازت الخطابة في الجاهلية بجريانها مع الطـــبع ، فلـــيس فيها تكلف ولا زخرف ولا غلو ، لحمتها الخيال ، وسداها البلاغة ، تسير مع أخلاق البدوي وبيئته ، فهو قوى اللفظ ،

متـــين التـــركيب قصير الجملة ، موجز الأسلوب ، قريب الإشارة ، قليل الاستعارة ، سطحي الفكرة ، وربما تساوقت فيه الحكم واطربت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة)[١]

– وكانـــت خطـــبهم معـــروفة بالطول والقصر ، بيد أنهم كانوا إلى قصارها أميل لتكون أعلق بالصدور ، وأذيع بين الناس ، حيث أنهم كانوا يتناقلونها مشافهة ويروونها كالشعر .

وكان للخطب عندهم أسماء خاصة كالعجوز والعذراء والشوهاء .

يقـــول الدكـــتور / شـــوقي ضيف : (من الصفات التي تميز عرب الجاهلـــية أنهـــم كانـــوا يحبون البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة ، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطابتهم احتفالاً شديداً لا من حيث الصقل وتجويد الألفاظ فحسب ، بل أيضاً من حيث مخارج الكلام ، ولعلهم مـــن أجـــل ذلـــك كانوا يتزيدون في جهارة الأصوات ، كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق وهدل الشفاه)[٢]

– وكـــان للخطباء في الجاهلية عادات يلتزمون بها ، ومن عاداتهم فيها:

١– الوقوف على نشر من الأرض " مكان عالي من الأرض " .

٢– القيام على ظهر دابة .

---

[١] تاريخ الأدب العربي صـــ١٩ـــ بتصرف

[٢] الفن ومذاهبه في النثر العربي صـــ٣٣

٣- طي العمائم على رؤوسهم .

٤- الإشارة في أثناء خطابتهم بالعصي والرماح والقضبان والقسي .

- كمـا كـان العرب يمدحون في الخطيب جهارة صوته وشدته ، وحسن الشارة وسلامة المنطق ، ويعيبون ضيقه ودقته ، والارتعاش والـرعدة ، أو الحصر والعي وكانوا يستحسنون فيه رباطة الجأش وقلة اللحظ وتخير الألفاظ .

ومـن خطـباء العـرب في الجاهلية : أبو طالب بن عبد المطلب ، وعتبة بن ربيعة (خطيب قريش يوم بدر) وسهيل بن عمرو، وقس بـن ساعدة الإيادي ، وأكثم بن صيفي ، ونفيل بن عبد العزى (جد عمر بن الخطاب) ،وقيس بن عاصم ، وعطارد بن صاحب زرارة .

نموذج

خطبة عبد المطلب بن هاشم يهنئ سيف بن ذي يزن باسترداد ملكهِ من الحبشة

لمـــا ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة ، أتته وفود العرب وأشرافها وشـــعراؤها تهنئة وتمدحه ، ومنهم وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم فأستأذنه في الكلام فأذن له فقال :

(إن الله – أيهـــا الملـــك – أحلك محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، باذخاً شـــامخاً ، وأنبـــتك منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، في أكرم معدن وأطيب موطن .

فأنت – أبيت اللعن –رأس العرب وربيعها الذي به تخصب ، وملكها الـــذي بـــه تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي إليه يلجـــأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل من أنت سلفه .

نحـــن – أيهـــا الملـــك – أهـــل حرم الله و وذمته ، وسدنة بيته ، أشخـــصنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة) [١]

والخطبة مبنية على السجع ، وهو ظاهر لتلك الخطابة فإن من يرجع إلـــى مـــا روى منها في كتب الأدب أو التاريخ يلاحظ أن أغلب ما

[١] جمهرة خطب العرب / أحمد زكي صفوت ج ١ صـــ٧٦ـــ المكتبة العلمية ببيروت

روى من خطب القوم روى مسجوعاً وهي مع ذلك قصيرة الجمل ، واضحة المعنى لما فيها من تقابل الأضداد ، بدأها بما يستهل به الكلام في مثل هذه المواقف ، من تهنئة الملك ومدحه والثناء عليه والدعاء له , كما تحس فيها عزة العربي وإبائه ، الذي يترفع عن العطاء ويسند النصر إلى واهبه وهو الله عز وجل .

نموذج آخر

خطب قس بن ساعدة الأيادي خطبة مسجوعة وكان فيها واعظاً متأملاً ، تحس في كلامه خبرة المجرب وحكمة العقلاء ، وتؤدة النابهين فقال :

(أيها الناس : اسمعوا وعوا : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، آيات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات وذاهب وآت ، ضوء وظلام , وبر وآثام , لباس ومركب , ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ؟! أم حبسوا فناموا ؟!)[1]

من هذه النماذج يتضح أن الخطابة الجاهلية اختصت بـ :

١- الاعتماد على السجع كنوع من الموسيقى ليسهل حفظها .

٢- الاعتماد على الحكم والأمثال .

---

[1] الفن ومذاهبه في النثر العربي صـ٣٤ـ

٣- قلة الترابط بين أجزائها .

٤- قصر فقراتها , واعتمادها على الصدق واستمدادها من البيئة .

٥- كما يغلب عليها الإيجاز , والخلو من اللحن , وكثرة الانتقال بين أفكارها .

كمــا أن الخطابـــة العربية في العصر الجاهلي فقدت عنصر الوحدة الموضـــوعية ، وهذه الخصائص والمميزات لم تكن شيئا خاصاً بهذا الخطيب أو ذاك وإنما كانت شيئاً عاماً ، وقاسماً مشتركاً بين الخطباء جميعهم .

سجع الكهان

سادت في الجاهلية بعض المعتقدات وكان منها (الكهانة) وتعني الإخبار بالأمور المستقبلية ، أو التنبؤ بعلم الغيب ، وكانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدعي وتزعم أنها تتطلع علي المغيبات ، وتعرف ما تأتي به ألواح الغد ، وأنها تنطق عن آلهتهم بما سخر لها من الجن التي تسترق لها السمع ، وكانت هذه الطائفة تسمي الكهان ، وواحدهم يسمي كاهن ، أما تابعه من الجن فكان يسمى " رئيا " وكانت العرب يستشيرون الكهان في الأمور العظيمة كإعلان الحرب ، أو قتل رجل ، أو وفاء زوجة ، أو قعود عن نصرة أحلاف .... إلخ .

وقد ساعد علي انتشار هذه الخرافات أن العرب كانوا أميين وساعدت بيئتهم علي ذلك أيضاً ، فقد كانوا يتصورون الغول والجن ، وكان الكهنة يتمتعون بنفوذ واسع ومنزلة كبيرة قد يصل هذا النفوذ إلي أكثر من قبيلة أو مجموعة من القبائل فيسيطر عليها سيطرة كاملة .

وأغلب هؤلاء الكهان من اليمن ومن أشهرهم " سطيح الذئبي ، وشق بن مصعب الأنماري " وقد نالا من الشهرة ما جعل الناس يحيطونهما بهالة من الأخبار التي تضعهما في عالم من الخيال الغريب .

فكانـــوا يقولون إن سطيحاً لم يكن له عظم سوى جمجمته ، وكانت ملصقة في صدره ، فليس له عنق ، وهو أحدب .

أما شق فهو نصف إنسان بعين واحدة يد واحدة ورجل واحدة

وممـــا يقـــال إنه كان لهؤلاء الكهان أقوال وخطابة كلها كانت تلتزم الـــسجع ، ومن ذلك ما روي من أخبار بني أسد أن حجراً أبا امرئ القـــيس رق لهم ، فبعث في أثرهم فأقبلوا حتي إذا كانوا علي مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو (عوف بن ربيعة) فقال لبني أسد : " يا عبادي ! فقالوا لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاب غيـــر المغلب ، في الإبل كأنها الربرب[1] لا يعلق رأسه الصحب ، هـــذا دمـــه ينـــثعب [2] وهو غداً أول من يسلب ، قالوا :ومن هو يا ربنا ؟ قال : لولا أن تجيش نفس جياشة لأخبرتكم أنه حجر ضاحية. فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتي أتوا علي عسكر حجر فهجموا علي قبته وقتلوه .

ومـــن ذلك أيضاً ما ورد في الجزء التاسع من " الأغاني " من خبر هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، وكانت في الجاهلية زوجة الفاكة بن المغيـــرة المخزومي وكان بيت زوجها يرده كثير من الناس ، وذات يـــوم اطلع عليها وزوجها وهي نائمة ، وقد خرج من عندها رجل ،

---

[1] الربرب : القطيع من الظباء . .

[2] ينثعـــب : يسيل

فـــساورته الـــشكوك في زوجته ، وأرسلها لأبيها الذي خرج بها إلي الكهـــان ليستطلع أمرها واصطحب معه نسوة من قومها وكان معه الفاكـــة في بعض رجال من قومه فلما قاربوا ديار الكاهن رأى عتبه مـــن ابنته انكساراً وتغيراً ، فقال لها يا بنية : لا تكتميني من أمرك شـــيئاً ، فإن كان بك من ريبة نرجع ولا بأس عليك فقالت هند : لا والله يـــا أبـــت مـــا ذاك لريبة ولا لفاحشة ولكنكم تقدمون علي بشر يخطئ ويصيب وأخشى أن يسمني بسمة تبقي علي وصمة عار آخر الدهـــر ، قـــال : سأســـلوه لك .[1] ثم خبأ خبيئاً ، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن فأخبرهم بخبيئهم . ثم جعل يتصفح النسوة واحدة واحدة حتي أقبل علي هند وقال لها: انهضي غير رسحاء[2] ولا زانية ، وستلدين ملكاً اسمه معاوية .

ولعنا نري اليوم مثل هذا السجع عند من يدعين معرفة الغيب والحظ في ضرب الرمل والودع والفنجان والطالع وأمثالهن .

---

[1] سأسلوه : سأختبره

[2] رسحاء : قبيحة

الوصايا والنصائح

الوصايا : لون نثري قريب من الخطابة إلا أنها أضيق حدوداً ، وأقل مساحة منها ، فهي لا تقدم إلا لمن يهتم الموصي بأمرهم كالأب لابنه والأم لابنتها أو شيخ لعشيرته ، وما شابه ذلك .

ويعـتمد المقدم للوصية علي خبرة طويلة هي محصلة مجموعة من الـتجارب التـي خاضـها في حياته يقدمها لمن يوصيه حتي ينهل ويـسترشد بما فيها ، وهذه الوصايا غالباً ما تسدى في أوقات السفر والزواج ، والإحساس بدنو الأجل .

ويعـتمد الموصـي علي البلاغة والسجع وقصر الجمل ، والاعتماد علـي ذكر الشئ ونتائجه ، بمعني أن يقدم نصائحه ووصاياه ويبين أثرها في صيغة الإنسان .

ومـن الأمثلة علي ذلك وصية ذي الأصبع العدواني لابنه التي يقول في بدايتها :

أي بنـي إن أباك قد فني وهو حي ، وعاش حتي سئم العيش وإني أوصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته فاحفظ عني :

ألـن جانـبك لقـومك يحـبوك ، وتواضـع لهـم يرفعوك ... إلخ

وفـيها يوصيه بالتمسك بالخلال الحميدة التي ترفعه في أعين الناس حتي يبلغ أرقي المناصب وكما تري فيها صدق العاطفة وبعد النظر والتأني في أفكارها وترتيبها ووضوحها.

ومـــن أشهر الوصايا وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس بنت عـــوف بن محلم الشيباني عند زواجها، ولما حان وقت زفافها علي الحارث بن عمرو ملك كندة زودتها أمها بتلك الوصايا التي تساعدها علي أن تكون زوجة ناجحة ناضجة ، وربة بيت أمينة ، ونواة أسرة قـــوية فقالـــت لها : أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزواج ــ لغني أبويها أو شدة حاجتهما ــ كنت أغني الناس عنه ولكـــن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال . أي بنية إنك فارقت الجـــو الذي منه خرجت ، وخلفت العش الذي فيه درجت ، إلي وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً فكوني له أمه يكن لك عبداً واحفظي له خصالاً عشرا يكن لك ذخرا :-

أما الأولي والثانية : فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة

وأمـــا الثالثة والرابعة : فالتفقد لمواضع عينية وأنفه ، فلا تقع عينه منك علي قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد في وقت منامه وطعامه فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة .

وأمـــا الـــسابعة والثامـــنة : فالاحتراس لماله والإرعاء علي حشمه وعياله وملاك الأمر في المال التقدير وفي العيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصي له أمراً ولا تفشي له سراً فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتماً ، والكئابة بين يدية إذا كان فرحاً .

ولعلـك تـري ما تحمله تلك الوصية من حكمة وبراعة في التعبير وتحلـيل لنفسية الرجل من هذه المرأة العاقلة ، ولعلك انتبهت أيضاً إلـي مـا في الوصية من استعارات وأساليب مختلفة تطلبها الموقف وكـذلك المحسنات البديعية في السجع ، والمزاوجة ، والوضوح في الألفـاظ وقـصر الجمـل والإطناب بالتكرار والإقناع المبني علي الترتيب في الوصية .

المفاخرات والمنافرات

المفاخرة : هي مفاخر القوم بعضهم علي بعض بما ينسبونه لأنفسهم من ذكر الحسب والنسب .

أمـــا المنافـــرة : فهي أن يفتخر الرجلان كل منهما علي صاحبه ثم يحكمـــان رجـــلاً يفصل بينهما ، وسُميت منافرة لأن كل منهما كان يسأل الحكم : أينا أعز نفرا .

ومن هذا اللون الأدبي ما كان بين عامر بن الطفيل العامري وعلقمة بـــن علاثة العامري ، فقد وقف لبعضهما يتفاخران ، وكان مما قاله عامر :

والله لا أنـــا أشـــرف مـــنك حسباً ، وأثبت نسباً وأطول سبباً ، وقال علقمـــة : أنافرك وإني لمذر وإنك لعاقر ، وإني لوفي وإنك لغادر ، وقـــال عامـــر : أنافرك وإني أنشر منك أمة وأطول قمة وأبعد همة .... وامـــتد الأمر بينهما حتي احتكما إلي هرم بن قحطبة الفزاري ، فطـــرق الـــناس خـــوف الفتنة ثم جعل يمهد في التسوية بينهما فأخذ يخوف كل واحد من صاحبه واستدعاهما بعد ذلك في جمع من الناس وقـــال : لقـــد تحاكمـــتما عندي ، وأنتما كركبتي البعير تقعان علي الأرض معاً وتقومان معاً فرضيا بقوله وانصرفا .

ولعـــل هـــذا الفن كان بذرة لما ظهر في العصر الأموي من غرض شـــعري تسمى بـــ " النقائض " وقد ظهرت بوضوح وكثرة واشتهر منها ما كان بين جرير والفرزدق .

الأمثال والحكـــم

نطق العرب في الجاهلية بالحكمة والمثل في أشعارهم وفي نثرهم ، بل وفي أقوالهم العادية ، وانتشرت هذه الحكم والأمثال حتى عني بها وبدراســتها علمـــاء العصر العباسي ، وممن سبق إلي ذلك المفضل الــضبي وأبــو عبــيدة ، ثم خلف من بعدهما مجموعة من العلماء أشهرهم : أبو هلال العسكري في كتابه " جمهرة الأمثال " والميداني في كتابه " مجمع الأمثال " .

والحكمـــة : قول موجز اللفظ يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً به ورد علي لسان رجل ذي تجربة وخبرة .

والمـــثل : قــول محكم يدور علي الألسنة ، أو هو قول موجز يشبه مضربه بمورده .

والحكمـــة والمثل كلاهما يشتركان في الإيجاز والدقة وقوة العبارة ، ووضـــوح الفكرة ، وروعة الصياغة ، وكلاهما سيق في المناسبات المخـــتلفة فانتــشرا وحفظهما العرب ، لقيمتهما وفائدتهما ؛ ولأنهما يتفقان مع حياتهم ونظرتهم فيما حولهم .

ومن الحكم : رب عجلة تهب ريثا ، ومنها : آخر الدواء الكي ومنها : خير الغني القناعة ، وكذلك : أول الحزم المشورة ، ومنها : العتاب قبل العقاب ، وكذلك : رب أكلة منعت أكلات .

- ويخـــتلف المثل عن الحكمة ، فهو يشير إلي حادثة معينة ضرب المـــثل فيها لأول مرة ، وتسمي " مورد المثل " ثم يستعمل فيما جاء بعـــد ذلك من أحداث تشبه الحادثة الأولي ، وتسمي الحادثة الجديدة " مضرب المثل " .

ومعروف أن الأمثال لا تغير ، بل تجري كما جاءت علي الألسنة ، وتبقـــي ثابـــتة مدي الزمان ، وإن خالفت قواعد النحو والصرف فقد جـــاء فـــي أمـــثالهم : مجبر أخاك لا بطل ، والقياس النحوي مجبر أخوك لا بطل لأن اسم المفعول " مجبر " يرفع ما بعده " نائب فاعل" فقياس أخاك أن تكون أخوك ، بيد أنها لم تغير .

ومـــن أمـــثالهم أيضا " أعط القوس باريها " بسكون الياء في باريها والأصـــل فتحها ، وجاء في أمثالهم أيضا : أجناؤها أبناؤها ، جمعي جانـــي وبانـــي والأصل جناتها بناتها لأن جاني تجمع علي جناة ، وباني تجمع علي بناة .

- وكـــذلك لا تتغير صيغة المثل إذا خوطب به المفرد أو المثني أو الجمع ، المذكر أو المؤنث بل تقال بصيغة واحدة للجميع ، وذلك لأن العرب يستجيزون في الأمثال ما لا يستجيزون في غيرها من سائر الكلام .

ومـــن ذلـــك قـــولهم : قطعت جهيزة قول كل خطيب ، فيقال المثل للمذكر والمؤنث والاثنان والجمع بلفظ واحد .

- ومن أمثالهم :

الـصيف ضيعت اللبن ، ويضرب لمن يطلب الشئ بعد فوات الأوان

وقولهم : لا تعدم الحسناء ذاما وقولهم : قبل الرماء تملأ الكنائن

وقـولهم : أسـمع جعجعة ولا أري طحنا ، ويضرب لمن يقول ولا يفعل وقولهم : تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها .

وهذه الأمثال من ناحية المورد تنقسم إلي قسمين :

(١) ما كان مورده حادثة حقيقية

ومـن ذلـك قولهم : (يداك وكتا وفوك نفخ) ويضرب المثل لمن يـرتكب الذنب ويتحمل عاقبته ، وأصل المثل أن قوماً أرادوا عبور خليج ، فجعلوا ينفخون الأوعية الجلدية حتى يستطيعوا العبور عليها إلا أن رجلا منهم لم ينفخ وعاءه نفخاً كاملاً ولم يربطه ربطاً محكماً فلما أخذوا في العبور وتوسط الشخص الماء أخذ الهواء في الخروج من الوعاء ، وقارب الرجل من الغرق فنادي من أصحابه يا فلان ، إني سأموت ، فقال له وما ذنبي يداك وكتا وفوك نفخ .

- ومنه أيضا " قطعت جهيزة قول كل خطيب ، ومورد هذا المثل أن قبيلتـين تـشاجرتا ، وقـتل من إحداهما شخص ، وحاولت القبائل المجـاورة الإسراع إلي الصلح حسماً للخلاف ، ودفع الدية ، وبينما هم يخطبون مطالبين أهل القتيل بالرضا بالدية إذ دخلت عليهم جارية تدعي جهيزة فأخبرت المجتمعين أن أهل القتيل قد أخذوا بثأرهم من

القاتل . فسكت الخطباء ، فقال قائل" قطعت جهيزة قول كل خطيب "
ويــضرب المــثل لمن يأتي بالقول الفصل في القضية عند اختلاف الآراء .

– ومــنه أيضا "جزاء سنمار " وأصله أن سنماراً رجل رومي بني للــنعمان بن امرئ القيس قصر الخورنق بالكوفة فلماء بناه وأحسن بناءه ألقاه النعمان من أعلاه فخر ميتا وذلك حتى لا يبني لأحد مثله ، فقــيل جــزاء سنمار ، ويضرب المثل لمن يقدم الإساءة لمن أحسن إليه.

ومنه أيضا : أخلف من عرقوب ، وما يوم حليمة بسر ، وأبخل من مادر ، وإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقي ...... الخ

٢) ما كان مورده حادثة فرضية " لم تحدث " في الحقيقة .

ومــنها : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ، وأصل هذا المثل علي ما حكــته العرب ، أن أخوين أجدبت بلادهما ، وكان بالقرب منهما واد خصب فيه حية تحميه ، فهبط أحدهما الوادي مخالفاً نصيحة أخيه ، فرعي فيه زمنا ثم نهشته الحية فقتله ، فجاء أخوه إلي الوادي يطلب ثــأره فقالت له الحية : هل لك في الصلح ؟ وأدعك في هذا الوادي وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت ، فحلف لها ألا يؤذيها إذا ظلت وفية بمــا قالت ، فلما حسن حاله تذكر أخاه فأخذ فأساً ثم تبعها وضربها فأخطأهــا ، وأثرت الفأس في جحرها فقطعت عنه الدينار ، فخاف

شــرها ونــدم فقال لها : هل لك أن نتواثق ونعود كما كنا ؟ قالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ، ويضرب المثل لمن لا يفي بالعهد .

وقد أكثر العرب من صنع الأمثال وضربها في جميع أحداثهم وشئون حــياتهم ، وكثيــراً مـــا كانـــوا يـــسوقونها فـــي خطابـــتهم .

يقول الجاحظ : (كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمــثال ســائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع) فقد أودعوها تجاربهم ، فاتسمت بالقبول وشاعت بالتداول .

ومن هذه الأمثال نقف علي ما يلي :

أولاً : تعبــر الأمــثال عن خلق عربي أو ترشد إلي سلوك معين أو تــشير إلي أشخاص صاروا قمماً في بعض الصفات ، ومنها ما يدل علي قوة الملاحظة ، وكل هذه المقالات ترتبط بالبيئة ، وتعبر عنها تعبيراً صادقاً خالياً من التصنع .

ثانياً : تمتاز الأمثال بدقتها ووضوح معناها وإيجاز لفظها ، وروعة تشبيهها فضلاً عن كونها مع مضربها استعارة تمثيلية حيث يستعار المثل من مورده لمضربه .

المراجـــع

م	المرجع	المؤلف
١-	الاشتقاق	ابن دريد "تحقيق عبدالسلام هارون "
٢-	الأدب الجاهلي	طه حسين
٣-	الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي .	محمد هاشم عطية
٤-	الأغاني	أبو فرج الأصفهاني
٥-	البيان والتبيين	الجاحظ
٦-	تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي ".....	شوقي ضيف
٧-	تاريخ الأدب العربي	أحمد حسن الزيات
٨-	جمهرة خطب العرب	أحمد زكي صفوت
٩-	الحيوان	الجاحظ
١٠-	دائرة المعارف الإسلامية	
١١-	دراسات في عصري الريادة	محمد العربي
١٢-	ديوان زهير	الهيئة العامة للكتاب
١٣-	شرح المعلقات السبع	أبو عبد الله الحسين ابن أحمد الزوزني
١٤-	الشعر والشعراء	ابن قتيبة "تحقيق أحمد شاكر"
١٥-	الصاحبي في فقه اللغة.......................	أحمد بن فارس

١٦- طبقات فحول الشعراء .... ابن سلام الجمحي
١٧- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .... ابن رشيق القيرواني
١٨- الفن ومذاهبه في النثر العربي .... شوقي ضيف
١٩- لسان العرب .... جمال الدين بن منظور
٢٠- المزهر .... السيوطي
٢١- الوساطة بين المتنبي وخصومه .... القاضي الجرجاني
٢٢- الوسيط في الأدب العربي .... أحمد الإسكندري ومصطفي العناني

الفهـــرس

